مصرع جوليان

الفيلسوف الإمبراطور

د. رأفت عبد الحميد*

جامعة عين شمس–مصر

" ها قد انتصرت أيها الجليلى " !!

صرخة أسى، أنَّ بها الإمبراطور الرومانى المسجى على فراش الموت وسط خيمة العرش فى ساحة القتال مع الساسانيين ، أطلقها بكل الحسرات جوليان Iulianus وهو ينثر فى الهواء حفنة من دماء كان قد قبض عليها من جرحه الغائر المميت ، ورفع بها أمام محكمة التاريخ، بقلم المؤرخ الكنسى ثيودوريت[1] Theodoretus دعوى الاتهام فى قضية مصرعه ، وتكر الأعوام وتمضى القرون والقضاة يبحثون عن الأدلة ، ويناقشون الشهود ويدرسون الوقائع ، سعياً إلى الحقيقة ، وتوقاً إلى الوصول من بين ملفات التاريخ إلى حكم للتاريخ .

ووسط تيه المساجلات تضطرب الأقوال ، ويكثر القيل والقال ، وتختلط الحقائق بالخيال ، وتتوزع الاتهامات ؛ فمن قائل إن قاتله هو أحد رجالات القبائل العربية التى شاركت فى جيشه لحرب الفرس ، ومن قائل إن السهم الذى أرداه فارسى ! ،وثالث يذهب إلى أن وثنياً من بين جنده دفعه ضيقه بتورط سيده فى هذه الحرب إلى الإقدام على التخلص منه ، ورابع يزعم أن ربات الانتقام اجتمعن وأنزلن بإمبراطور الرومان عذابهن الأليم وقتلنه ! ، وخامس يردد ما شاع فى أسواق نصيبين من أن جوليان دفعته حالة القنوط خشية الاندحار إلى جدار اليأس فأقدم على الانتحار !! ، وسادس لا يعتقد بوجود قضية أصلاً إذ يعتبر الحادثة فى حد ذاتها مجرد إهمال من جانب الإمبراطور أو حرسه الخاص . وآخرون يرون أن العبارة التى أطلقها جوليان وهو يعالج سكرات الموت لا تحمل إلا الاتهام الصريح للمسيحيين باغتياله.

ولم يكن جوليان أول الأباطرة الرومان الذين لقوا حتفهم اغتيالاً ، ولا كان آخرهم ، فطوال مائة سنة تقريباً سبقت عهده القصير (٣٦١ – ٣٦٣م) كان المشهد الذى ارتاعت له خشبة المسرح

---

* قام بنشر هذا البحث وتنسيقه د. طارق منصور بالتعاون مع د. عبد العزيز رمضان، وفاءً للأستاذ الدكتور رأفت عبد الحميد، عقب وفاة سيادته عسى أن يكون صدقة جارية على روحه.

(١) *Historia Ecclesiastica,* III, 20.

السياسى الرومانى ، مصرع العديد من الأباطرة ، حتى أن خمسة وعشرين منهم قتلوا على التوالى من بين ستة وعشرين حكموا خلال خمسين عاماً فقط (٢٣٥ – ٢٨٤م). بينما شهد هو نفسه مقتل ابنى عمه ؛ قسطنطين الثانى Constantinus II (٣٤٠م) وقنسطانز Constans (٣٥٠م)، ولكن أحداً من أولئك الذين من قبله ذهبوا ، ولا أولاء الذين من بعده جاءوا ، وتجرعوا الكأس نفسه ، لم يحظ مقتله فى الأوساط التاريخية بمثل ما لقيته قضية مصرع جوليان من اهتمام وما أثارته من جدال ، رغم أن بعضا من أولئك وأولاء لم يكن يقل عنه شهرة واقتداراً .

أتُرى جاءجوليان متأخراً كثيراً عن عصر فاته ببعيد ، ود لو كان قد عاش فيه ، أيام علا فلاسفة أثينا ومفكروها وأدباؤها سماء هيلاس ؟ أو أيام ساد لسان الإغريق وعقلهم ، مختلطاً بالحضارات الشرقية القيمة ، لغة شعوب عالم البحر المتوسط وفكرهم ؟ أم تراه جاء سابقاً ، ليس ببعيد ، لعصر امتزجت فيه ثقافة اليونان وفلسفاتهم بالعقيدة المسيحية امتزاجاً كاملاً ، بحيث أصبح من الصعب تماماً التمييز بينهما أو فصل إحداهما عن الأخرى ، فكان عالم جديد هو عالم بيزنطة ؟ أو لعله هو هذا وذاك فى وقت واحد . لكن الذى لا شك فيه أن جوليان وجد فى عصر غير عصره ، فى زمان كان يشهد تحولات جذرية فى مجرى الحضارة الإنسانية ، لفترة امتدت من القرن الرابع إلى الثامن الميلادى ، إصطرع فيها من خلال تيارات ثلاثة ، القديم والجديد ، واستبقا ؛ التراث اليونانى الرومانى بكل جوانبه فى الفكر والفن والأدب ، فى السياسة والاقتصاد، في الحياة الاجتماعية ودنيا الناس ؛ والمسيحية بروحانياتها وتعاليم الآباء وسير الرهبان ؛ والقبائل الجرمانية بلهجاتها وتقاليدها والأعراف . ولم يكن القديم قد تولى إلى الظل ، ولا كان الجديد قد تفتحت بعد براعمه ، ومن خلال هذا الاصطراع والاستباق حدث التفاعل والامتزاج عبر القرون الخمسة تلك ، وكان الرابع أولها ومدخلا لها من القرون تلاه ، اعتصرته التيارات الثلاثة اعتصارا من بدايته حتى منتهاه[٢] ، ومن ثم

---

[٢] فى عام ٣٠٦ م إنهارت الحكومة الرباعية التى أوجدها الإمبراطور دقلديانوس Diocletianus ليخلص بها الإمبراطورية من أزمتها الطاحنة التى أرهقتها من أمرها عسراً فى القرن الثالث الميلادى ، وفى عام ٣١٣ م اتفق قسطنطين Constantinus وزميله ليكينيوس Licinius فى ميلانو على الاعتراف بالمسيحية ديانة شرعية Riligio licita ، وفى عام ٣٣٠م تم تدشين القسطنطينية عاصمة جديدة للإمبراطورية ، فانتقل مركز الثقل من الغرب إلى الشرق ، أو بتعبير أدق إنقلب المركز من قلب عالم اللاتين إلى قلب عالم اليونان وتبع ذلك نتائج بعيدة المدى فى اتجاه مسيرة التاريخ ، وفى عام ٣٣٧م قضى النظام السياسى الرومانى القديم المستتر برداء التقاليد الجمهورية نحبه عندما جعل قسطنطين الوراثة مبدأ أساسياً لإعتلاء العرش الرومانى ، وفى عام ٣٥٧م أقدم قسطنطيوس على إزالة مذبح النصر – رمز روما الوثنية المقتدرة ، من مبنى السناتو ، وفى عام ٣٧٨م دهمت الجحافل الجرمانية الإمبراطوية بعد أن أوقعت بها هزيمة مروعة فى أدريانوبل Adrianopolis، واجتاح الجرمان نصف الإمبراطورية الغربية كسيل العرم ، وفى عام

كان أشدها غيماً ، وأبعدها قلقاً . وفى أوليات نصفه الثانى جاء جوليان . وذهب ، بين لوحة باهتة لقديم كان ، وصورة شاحبة لجديد آت ! .

كان القديم كله آنذاك فى عالم الإمبراطورية الرومانية وثنيا ، لكن الوثنية لم تكن آنئذ مجرد أبخرة تحرق ، أو قرابين تساق إلى المذبح إرضاء للأرباب ، ولا صلوات يقوم بها كاهن حليق الرأس فى معبد آوت إليه الجرذان قبل العّباد[٣] . لكن الوثنية كانت تمثل بصفة خاصة لدى الطبقة الأرستقراطية فى المجتمع الرومانى ، وفى مقدمتها أعضاء مجلس السناتو ، مسألة حيوية لارتباطها بالتقاليد القديمة ، ومجد روما وفخارها . ففى ظل تلك الأرباب وتحت جناح النسر الرومانى ، حقق الرومان أروع انتصاراتهم العسكرية ، وبسطوا سلطانهم على مساحات شاسعة من العالم القديم تمتد من الفرات شرقا حتى "المحيط البريطانى"[٤]غرباً ، ومن الدانوب شمالاً حتى النوبة جنوباً .

وأي شئ أكبر شهادة من أن نقرأ بإمعان ، هذه الرسالة التى تعد قطعة أدبية رائعة ، كان قد كتبها الخطيب الأشهر سيماخوس Symmachus محافظ روما قرب نهاية القرن الرابع ، إلى الإمبراطور الرومانى فى النصف الغربى فالنتينيان الثانى Valentinianus II فى محاولة من جانبه باعتباره زعيم الأغلبية الوثنية فى مجلس السناتو فى روما القديمة على شطآن التيبر ، لإعادة بناء مذبح النصر الشهير فى قاعة المجلس ، والذى يرتبط ارتباطاً وثيقاً بأمجاد روما[٥] . يقول سيماخوس

٣٩١/٣٩٠م إعترف الإمبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I بالمسيحية ديناً رسمياً ، وفى عام ٣٩٥م توفى هذا الإمبراطور بعد أن قسم إدارة الحكم فى الإمبراطورية بين ولديه أركاديوس Arcadius فى الشرق وهونوريوس Honorius فى الغرب لينتهى القرن الرابع الميلادى الذى حفل بكل هذه الأحداث وشطرا الإمبراطورية يعطى كل منهما للآخر ظهره .

[٣] من أطرف ما يروى فى هذا السبيل ما حدث عندما قام المسيحيون فى الاسكندرية يقودهم أسقف المدينة ثيوفيلوس Theophilus بالهجوم على السيرابيوم لتدميره ، حيث قيل أن معاول الهدم أيقظت الجرذان ساكنى الجدران فولت للهادمين أدبارها !! .

[٤] هذا المصطلح "المحيط البريطانى" استخدمه الإمبراطور قسطنطين العظيم (٣٠٦ – ٣٣٧م) فى إحدى رسائله التى بعث بها إلى أهالى فلسطين بعد إنفراده بحكم الإمبراطورية سنة ٣٢٣م . للوقوف على ذلك راجع: EUSEB. vita Const. II 28

[٥] كان هذا المذبح قد هدم فى عام ٣٥٧ م على يد الإمبراطور قسطنطيوس أثناء زيارته الوحيدة التى قام بها لروما ، ثم أعيد بناؤه على يد خليفته جوليان ، وغض الطرف عن بقائه الإمبراطوران المسيحيان فالنتينيان الأول Valentinianus I وفالنز Valens فلما خلف جراتيان Gratianus أباه فالنتينيان الأول فى حكم النصف الغربى أقدم على هدم المذبح ثانية. لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع للباحث: الدولة والكنيسة، الجزء الرابع ، ص١٢٩-١٣٦، ثم الوثائق الخاصة بهذا الموضوع فى نهاية الكتاب.

: "... نبئونى أى شئ أفضل من أن نحمى تراث الأسلاف الذى يعد فوق الجميع ... إننا نتوسل إليك أن تسمح لنا – وقد بلغنا أرذل العمر – أن نترك للأجيال ما فتحنا عليه عيوننا صبية ، فكم هو عظيم حب التراث ! ولنفترض الآن أن روما جاءتك تسعى وراحت تحاورك قائلة : "أيها الأمير العظيم.. إن آباءك قد حفظوا علّى دهرى ، وقدموا لى طقوس التقوى ، فلتدعنى أحيا بشعائر الأباء حتى لا أشعر بالندم عليهم والأسى . دعنى أحيا حسب سننى ، فهذه إرادتى . هذه العقيدة أخضعت العالم لنظمى ، وهذى المقدسات ردت هانيبال عن أسوارى ، والسينونيين عن الكابتول .. محرابى . أترانى كنت أدخر هذا لألام من أجله فى خريف عمرى" ؟!ثم يتساءل سيماخوس موجهاً للإمبراطور خطابه : "ألا ترتبط عقيدة روما بالقانون الرومانى ؟ أتراك ترفض الحماية التى تقترن بها انتصاراتك ؟ ألا من أجل فخار روما نناشدك ألا تتردد فى التخلى عما ثبت بالقطع أنه لا يتفق وأخلاق الأمير"[٦].

وبعد سنوات قليلة خاطب الفيلسوف الأنطاكى الذائع الصيت ليبانيوس Libanius فى العقد الأخير من القرن الرابع ، الإمبراطور ثيودوسيوس الأول **I** Theodosius (٣٧٨ – ٣٩٥م) بما يقترب من هذا الأسلوب مؤكداً على ما قدمته الأرباب لروما من المجد والرخاء ، يقول : "الفضل وحده للأرباب يعود ، اذ قادوا الرومان إلى النصر على أعدائهم ، وجعلوا هؤلاء المهزومين أحسن حالاً مما كانوا من قبل عليه . لقد حذرهم الأرباب من الخوف وأحسنوا إليهم صنعاً إذ أدخلوهم تحت مظلة القانون الرومانى"[٧] ، ويضيف : "أى الأرباب يجب على الرومان أن يعبدوها ليحققوا كل تلك الأعمال العظيمة التى أنجزوها منذ نعومة أظفارهم ؟ أألله أولئك الرهبان المسيحيين ، أم أولئك الأرباب الذين يمتلكون المعابد والمذابح ، والذين علموا الرومان ما هم به قائمون ، وما هم عنه منتهون؟!"[٨].

وجوليان نفسه فى رسالته إلى "الجليليين" ، وهو اللفظ الذى كان يحلو له أن ينادى به المسيحيين ، يذهب إلى الربط بين الانحلال السياسى والديانة اليهودية – المسيحية ، ويؤكد على أن الشواهد التاريخية تدل دون أدنى شك على أن الأرباب قد دفعت بالسيادة الرومانية إلى عليين ، ودان لها العالم ، بينما لم يستطع إله العبرانيين أن يحول دون عبوديتهم ، ويقول مخاطباً المسيحيين :

---

(٦) Symmachos, *Memorial of Nicene Fathers*, X, 2, pp.414-417.

(٧) LIBAN. *Oratio* XXX, 5 (Quoted in Kaegi, *Byzantium and the decline of Rome* , p. 71).

(٨) Ibid. p. 72.

"إيتونى بواحد من العبرانيين يشبه الإسكندر أو قيصر !" ويضيف "لماذا إذن كفرتم بالأرباب ؟ ألأنها أعطت السلطة الإمبراطورية لروما ؟!" [٩] .

وإذا كان هذا هو معتقد الأرستقراطية الرومانية بكل من تضمهم من الطبقة النبيلة ، فإن خاصة المثقفين فى المجتمع الرومانى أظهروا احترامهم وتقديرهم للأرباب من نفس الزاوية ، أو على حد تعبير Chadwick[١٠] لارتباط هذه العبادات القديمة بمجد روما وفخارها" ، إلا أنهم فى الوقت ذاته وجدوا سلواهم وعزاءهم فى الفلسفة ، التى لم تعد فى تلك الفترة تمثل خصوصية الفلاسفة ومريديهم ، بل عمومية الخاصة المثقفة . ولقد عبر جوليان عن ذلك بقوله لأحد أصدقائه : "إذا جاءك أحد من الناس ليقنعك أن ثمة شيئاً أعظم نفعاً للجنس البشرى من دراسة الفلسفة ، دون أن يعوقه عن ذلك عائق ، فاعلم أنه مخدوع يريد أن يخدعك"[١١] . وهو فى هذا يتابع أستاذه الأثير أفلاطون فى قوله : "الفلسفة ملاذ النفوس الموهوبة التى لم تشأ أو التى لم تتنازل أو التى لم تستطع مزاولة السياسة"[١٢] ، ويتخذ من سلفه الفيلسوف الإمبراطور ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius (١٦٠ – ١٨٠م) مثالاً يحتذى فى إيمانه بأن الفلسفة هى الشئ الوحيد الذى يجعل من الممكن تحمل الحياة ، هذه الحرب الدائمة ، هذه الإقامة الغريبة بكل ما فيها من "قذارة" . فالفلسفة هى التى تسمح بحفظ ذلك "الشيطان الداخلى" بعيداً عن كل شئ"[١٣] ، ويتذكر جيداً كلمات أوريليوس : "إن البلاط هو "زوجة أبيه" ، لذلك يجب عليه أن يوليه عنايته ، أما الفلسفة فهى "أمه" التى يحن دوماً إليها ، والتى على صدرها يرتاح ، وبفضلها وحدها تبدو الأشياء محتملة ، ويبدو هو نفسه فى الأشياء محتملاً "[١٤] .

كانت هذه الفئة من الرومان عموماً تنشد فى الفلسفة وسيلة لقيادة ضمائرها ، فكان ينظر إلى الفيلسوف بوصفه قائداً للضمير وموجها له ، ومن ثم لم يكن غريباً أن تأخذ الأخلاق هذا الطابع العملى الصرف الذى انتهى بها إلى مجموعة من الأمثال والحكم كما لاحظناه الآن فى تأملات

---

(٩) IULIAN, *Contra Christianus*, (Quoted in Kaegi, *Byzantium and the decline of Rome*, p. 72).

(١٠) *The early church*, p. 152; Bokenkotter, *A Concise history of the Catholic church*, pp. 69-70.

(١١) ول ديورنت، قصة الحضارة، م٤ ، جـ١، ص ٣٥.

(١٢) جان توشار وآخرون، تاريخ الفكر السياسى ، ترجمة دكتور على مقلد، ص ٢٩.

(١٣) شوفالييه، تاريخ الفكر السياسي، ترجمة محمد عزب صاصيلا، ص ٣٧.

(١٤) المرجع نفسه، ص ١٤١ – ١٤٢.

ماركوس أوريليوس[١٥] ، أو ما سوف نشهده من بعد عند جوليان . ولعل السبب الرئيسى فى ذلك يعود إلى حالة التردى التى أعيت الإمبراطورية الرومانية إبان ما يعرف بأزمة القرن الثالث الميلادى ، ومرحلة القلق والترقب والحذر التى كانت تحياها على امتداد القرن الرابع . وقد راح الناس يقارنون بين ما كانت عليه روما الجمهورية فى قرنيها الأخيرين (الثانى والأول قبل الميلاد) وما آل إليه أمر روما الإمبراطورية الآن .

لقد حققت الجمهورية الرومانية انتصارات عسكرية هائلة آنذاك خارج حدودها ، فبسطت سلطانها على الغرب الأوروبى ، واحتوت ، واحدة وراء الأخرى ، ممالك الحضارة الهلنستية فى الشرق، بينما شهد الداخل ، داخل قاعة مجلس السناتو مناقشات سياسية واقتصادية رائعة ، سجلت بها فى التاريخ أسماء الأخوين جراكوس ، وبلينيوس الأكبر وسميه الأصغر وكاتو وشيشرون . ومع أنه من نافلة القول معرفة أن ذلك كان كله حقاً مقصوراً على النبالة الرومانية وحدها ، إلا أنه فى النهاية كان ينسب إلى الشعب الرومانى ، الذى كانت تقدم إليه على مذبح النصر فى مبنى السناتو كل هذه الانتصارات ، أو تدور باسمه كل هذه المناقشات .

وعلى الرغم من أن الامبراطورية الرومانية قدمت للناس خلال القرن الأول الميلادى وقرابة نصف القرن الثانى ، عصراً من السلام Pax Romanaإلا أنه كان سلاماً قلقاً يحمل فى طياته بذور انهياره ؛ ذلك أن الاتساع الهائل للإمبراطورية والثراء الفاحش الذى غرقت فيه روما حتى آذانها ، كان فى ظاهره نعمة ، وفى باطنه نقمة حلت بالإمبراطورية ، إذ تقلب الرومان فى النعيم ففقدوا روحهم العسكرية التى كانت تميزهم منذ نشأة مدينتهم وسط إقليم لاتيوم Latium ، وراحوا يعتمدون فى جيشهم على الشعوب الأخرى ثم القبائل الأخرى الأشد تخلفاً ، أعنى الجرمان كجنود مرتزقة ، وأهملوا الزراعة التى كانت هى أيضاً قرينة بداياتهم الأولى ، وركنوا إلى ما يأتيهم من مزارع غالة من الكروم ، أو من قمح افريقيا ، أو ما تمدهم به مصر .. قبو الحنطة .

على أن الشئ الأكثر أهمية ، إختراق ذلك السياج المنيع للطبقة الرومانية النبيلة ، سواء بصورة تلقائية حيناً ، أو عمداً بأيدى الأباطرة أنفسهم أحياناً ، وقفز العسكريين إلى السلطة ، وإن لم يأت ذلك فجأة ، بل يعود إلى أخريات العصر الجمهورى على أيدى ماريوس وصلا وبومبى وأنطونيوس وأوكتافيانوس ، حتى أضحى العسكريون – ومن غير النبالة الأصيلة – هم الطبقة الحاكمة فى الإمبراطورية . ولعل خير تجسيد لهذه الحال وصية الإمبراطور سبتميوس سفروس Septimius Severus لإبنه وهو يعظه "يا بنى .. أجزل العطاء للجند ولا تلق بالا للآخرين " !!

---

[١٥] عبد الرحمن بدون، خريف الفكر اليوناني، ص ٤٩.

وفى ظل الاختفاء التدريجى المتواصل والبعيد ، لسلطة السناتو الرومانى ، وغياب الأباطرة الذين ينتمون إلى الأرستقراطية الحقيقية ، وعدم وجود قاعدة ثابتة لاعتلاء العرش الرومانى ، إنتهزت الفيالق الرومانية فى مختلف أنحاء الإمبراطورية الفرصة لترفع بقوادها إلى كرسى للعرش ساخت قوائمه ، حتى أنه خلال خمسين عاماً (٢٣٥ – ٢٨٤م) تمثل أزمة القرن الثالث ، إعتلى عرش روما ستة وعشرون إمبراطوراً ، والأغرب من ذلك أن واحداً من هؤلاء فقط هو الذى نجا من القتل !! وفى حمى الصراع من أجل المنصب الإمبراطورى كان طبيعياً أن لا يمد الجالس على العرش ناظريه أبعد من قوائم كرسيه ، وكان منطقياً أيضاً أن يصرف كل همه إلى إرضاء ، بل الحفاظ على رضى من رفعوه مكاناً علياً . فإزدادت الضرائب واشتدت وطأتها على كواهل الفلاحين ، الذين دفع العجز عن دفعها كثيراً منهم إلى هجران أراضيهم ، ليعملوا قطاع طرق ولصوص ، ولتمسى مساحات واسعة من الأراضى الزراعية إلى بوار . ولم تعد الطوق التجارية الرومانية الشهيرة آمنة ، فضلاً عن كونها لم تعد منذ زمن صالحة ، وتوقف على هذا النحو دولاب العمل الاقتصادى ، وخفضت تلقائياً أو بقرارات من الأباطرة قيمة العملة ، فارتفعت الأسعار ، وتفشى الغلاء ، وازداد التجار جشعاً ، وازداد المترفون من محدثى النعمة ثراء، وازداد الفقراء ضنكاً . وهكذا – على حد تعبير المؤرخ جونز "ضاع كل شئ"[١٦] .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى اجتراء القوى الخارجية على الحدود الرومانية، فشنت العناصر الجرمانية ، خاصة الفرنجة ، هجمات متلاحقة على نهرى الدانوب والراين ، بينما تمكن الفرس من أن يهزوا هيبة الإمبراطورية عندما أوقعوا بها الهزيمة واسروا الإمبراطور فاليريان Valerianus عام ٢٦٠ للميلاد ، وراحت ولايات الإمبراطورية فى شطريها الشرقى والغربى على السواء تطل من جنباتها حركات الثورة ضد السيادة الرومانية خاصة من جراء السياسة الاقتصادية المتعسفة .

ولما كانت الوثنية الرومانية متسامحة إلى حد بعيد ، حتى مع أرباب أعدائها وولاياتها ، ما دام ذلك لا ينتقص من هيبة أربابها ومكانتهم ، فقد سمح لآلهة أخرى أن تحتل مكانها فى البانثيون الرومانى شأن مثرا الفارسى ، وكيبيلى Cybele الأم الفريجية العظيمة Magna Mater وإيزيس المصرية ، علّ العباد يجدون فيها نفعاً وعوضاً عن آلهتهم التى ألفوها ، شجع على ذلك أنه لم تكن هناك فواصل بين هذه العبادات ، ولم يكن الولاء لإيزيس مثلا يحول دون الاشتراك فى طقوس مثرا أو آتيس ، بل كان الجميع بلا استثناء يشتركون فى العبادة الإمبراطورية التى كانت تعد رمز الولاء للدولة، وخيطا رفيعا يربط ولايات الدولة كلها باتجاه قبلة واحدة هى روما .

---

(١٦) Jones, *Constantine and the Conversion of Europe*, p. 11.

ومع كل ذلك فإن شيئاً من هذا كله لم يجد نفعا ، بل لعله كان سبباً رئيسياً فى أن ديانة جديدة هى المسيحية بدأت تتلمس طريقها ، وتتسرب إلى الطبقات الفقيرة ، وعلى استحياء إلى بعض العائلات الثرية ، بينما ظلت الارستقراطية النبيلة على ولائها التقليدى لآلهة الأسلاف العظام، وهو فى حد ذاته ولاء سياسى أكثر من كونه حفاظاً على دين . أما المثقفون فقد ولوا وجوههم شطر الفكر اليونانى ، ووجدوا فى محراب الفلسفة هداهم . ووسط حالة التيه التى تفرقت فيها بالامبراطورية السبل، كانت الفلسفة ملاذا لأولى الألباب ، ذلك أن المرء على حد تعبير برتراند رسل[١٧] إما أن يكون متبلد الحس تماماً أو قوى الإرادة إلى حد غير عادى ، حتى يحتفظ بحالة من الرضا الدائم إزاء القلاقل السائدة فى ذلك العصر ، وهكذا فإن نظرية للمثل تنظر إلى عالم الحس وما فيه من مظاهر التعاسة على أنه غير حقيقى ، تصلح تماماً لإقناع الناس بقبول مصيرهم " .

وكانت الفلسفة قد تخلت كارهة خلال القرنين السابقين على الميلاد ، والثلاثة اللاحقة له ، عن سماتها الهللينية التى ذاعت بها شهرتها إبان حضارة دولة المدينة على يد أعلامها الكلاسيكيين، ودخلت فى طور جديد من جراء التوسع المقدونى الذى قاده الاسكندر باتجاه الشرق ، وضم به مناطق الحضارات القديمة إلى عالم اليونان ، وبفضل ما قام به خلفاؤه من إقامة ممالك البطالمة فى مصر والسلوقيين فى سوريا إضافة إلى آسيا الصغرى وبلاد اليونان ذاتها . وأضحت صيغة "الهللنسيتية" علماً عليها بفضل الامتزاج الحتمى بالتيارات الفكرية والفلسفات الشرقية والسائدة . وإذا كان الاسكندر قد حرص أثناء حملاته العسكرية هذه على إقامة عدد من المراكز لتكون بؤرة إشعاع للفكر اليونانى فى بلاد الشرق ، فإن هذه المدائن التى ازدهرت على عهود خلفائه ، كالاسكندرية وأنطاكية وبرجامة ، قد تحولت إلى بوتقات انصهرت فيها ثقافات الشرق القديم بكل ما تحمله من نزعة تصوفية ، بالفكر الفلسفى اليونانى . وساعدت الإمبراطورية الرومانية بعالميتها وتنظيماتها الإدارية وتشريعاتها القانونية وتماسكها الإجتماعى ، وامتداد سلطانها من الفرات إلى بريطانيا ، على تسهيل عملية الامتزاج تلك ، وانتشار هذا الخليط الثقافى – وإن كان بدرجات متفاوتة – فى معظم أنحاء الإمبراطورية .

ومن البديهى أن يصبح حتماً مقضياً فى ظل الظروف التى عاشها العالم الرومانى ، سواء إبان فترة السلام ، أو خلال أزمة القرن الثالث ، تحول الفلسفة من النقاش حول أصل الوجود والميتافيزيقا إلى قضايا الأخلاق العامة ، وتحول نظرية المثل وقيم الحق والخير والجمال إلى الممارسة العملية . وفى ظل مجتمع تلك حالته ، عدت الفضيلة بقهر الجسد سبيلاً إلى النجاة ، ومن

---

[١٧] حكمة الغرب، ترجمة فؤاد زكريا ، جـ١ ، ص ٢٢٧.

ثم أمست الفلسفات السائدة ، ممثلة فى الفيثاغورية الجديدة والأفلاطونية المحدثة والرواقية ، فى جوهرها دعوى إلى الفضيلة .

وقد كسبت الرواقية أرضاً واسعة على عصر السلام الرومانى ، بدعوتها إلى "الإخاء بين البشر"[١٨] تحت لواء عالمية الإمبراطورية ، خاصة على عهد الإمبراطور الفيلسوف ماركوس أوريليوس الذى كان يردد دائماً أن "الدولة المثالية هى التى يوجد فيها قانون واحد يطبق على الجميع ، ويكون الحكم فيها وفقاً لمبدأ المساواة فى الحقوق والحرية الفكرية . كما أن المثالية الملكية هى التى تحترم قبل أى شئ آخر حرية المحكومين"[١٩]. وعلى الرغم من اعتناق أوريليوس للنظرية الرواقية العامة فى الخير ، وأسمى خير هو الفضيلة التى يكون قوامها العيش فى وحدة مع العالم ، إلا أنه كان يحمل آراء عن الواجب الاجتماعى أقرب إلى روح أفلاطون ، من حيث وجوب قيام الإنسان بدور فى الشئون السياسية العامة باعتباره كائناً اجتماعيا[٢٠] . ومع هذه المكانة التى حظيت بها الرواقية خلال القرنين الأولين من عمر الإمبراطورية ، إلا أنها اضطرت أن تفسح المجال للأفلاطونية المحدثة التى كان تأثير النزعات التصوفية الشرقية واضحاً فيها إلى حد بعيد .

وسط هذا اللابرنت العقيدى والفكرى وجد جوليان نفسه ، وكان عليه أن يختط لهذه النفس القلقة دربا يجمع فيه بين فكر اليونان وأرباب الرومان وصوفية الشرق القيم[٢١] ، خاصة وقد عاف عقله المسيحية التى أكره على تلقى تعاليمها حسب قوله وهو بعد غض غرير ، معتبرا الكتاب المقدس

---

[١٨] كان مما قاله زينون مؤسس الرواقية "يجب أن لا يتفق الناس فى مدن وشعوب لكل منها قوانينها الخاصة، لأن كل الناس مواطنون ، ولأن لهم حياة واحدة ونظاماً واحداً للأشياء ، كما هو حال القطيع الموحد فى ظل قاعدة قانون مشترك" ويعلق بلوتارك على ذلك بقوله:"إن ما كتبه زينون كما لو كان يحلم قام الاسكندر بتحقيقه . لقد جع فى إناء واحد كل شعوب العالم ، وأمر الجميع أن يعتبروا الأرض وطنهم وجيشه قلعتهم والناس الأخيار كأهل والأشرار كأجانب" . راجع: شوفالييه، المرجع السابق، ص ١٢٢.

[١٩] دوسن، تكوين أوروبا ، ترجمة محمد مصطفى زيادة وسعيد عاشور، ص ٢٣.

[٢٠] راسل، حكمة الغرب، جـ١ ، ص ٢١٧.

[٢١] يصف أحد المؤرخين عقيدة جوليان بقوله إنها كانت خليطاً مما شاع آنذاك من الفلسفة والكتب المقدسة والخزعبلات؛ فمن الناحية الفلسفية كان من المؤمنين بوحدة الوجود Pantheism الذين يعتقدون أن الألوهية حالة فى الطبيعة ، أنموذجها الأعلى "الشمس" ، وفى الوقت نفسه كان ينظر إلى المقدسات الوثنية والأساطير باعتبارها رموزاً لوحى أو إلهام إلهى ، ومن ثم فإنه كان يعتقد ضمناً فى قوى النبوءات والمعجزات الخاصة بكبار الفلاسفة ، وكشأن كثير من الوثنيين المتحمسين فى عصره ، فقد كان يعشق الحياة التطهيرية أو النسكية . راجع :

Jones, *The decline of the Ancient world*, p. 59.

مدعاة للجهل والتخلف[٢٢] حيث يقول "إن الأناجيل يناقض بعضها بعضا ، ولن أهم ما تتفق فيه هو أنها أبعد ما تكون عن العقل ، فإنجيل يوحنا يختلف كل الاختلاف عن الأناجيل الثلاثة الأخرى فى رواياتها وما تحتويه عن أصول الدين . وقصة الخلق التى جاءت فى سفر التكوين تفترض تعدد الآلهة ، فإذا لم تكن كل قصة من هذه القصص (الواردة فى سفر التكوين) أسطورة لا أكثر ، وإذا لم يكن لها تفسير يخفى على الناس ، فهى مليئة بالتجديف فى حق الله ؛ ذلك أنها تمثله أول ما تمثله جاهلا بأن التى خلقها لتكون عونا لآدم ستكون سبب سقوطه ، ثم تمثله حاقداً حسودا إلى أقصى حد ، بما تعزوه إليه من أنه يأبى على الإنسان أن يعرف الخير والشر ، ويأبى أن يصبح الإنسان مخلدا إذا أطعم من الشجرة"[٢٣] .

وكان جوليان منذ توفى عمه قسطنطين العظيم ، قد ولى دبره لدهاليز السياسة متحرقا إلى أروقة الفلسفة ، وشجعه متعمدا ابن عمه قسطنطيوس ، الإمبراطور الجديد فى الولايات الشرقية ، حتى يبعد بذلك عن نفسه هاجس الشك فى كل من حوله من أفراد العائلة الملكية . وكان هذا فى حد ذاته خيرا وبركة على الأمير جوليان من وجهة نظره ، إذ سلم عقله طائعاً لفلاسفة اليونان وتدله بحب أفلاطون ، وعشق الأفلاطونية المحدثة ، وتخلق بالرواقية ، رغم أنه ظل طيلة هذه الفترة حتى عشية اعتلائه العرش فى الحادى عشر من نوفمبر عام ٣٦١ يضع على كتفه رداء المسيحية خوفا من بطش قسطنطيوس الذى راح يطارده من مكان إلى آخر حتى لا يترك له مستقراً ، فمن القسطنطينية إلى نيقوميديا ومنها إلى قلعة ماكللوم Macellum فى كبادوكيا ، فالعاصمة ثانية ، فنيقوميديا مرة أخرى ، ومنها إلى برجامة ثم إفسوس فأثينا التى احتضنها بشغاف عقله ، وأخيراً إلى غالة قيصرا قبل أن يعود إلى القسطنطينية إمبراطورا . لكنه حرص خلال رحلة الشتات هذه على أن يكون تلميذا جادا أومريدا لأدباء العصر وفلاسفته ، فأحب فى أستاذه الهرم ماردونيوس Mardonius هوميروس وهزيود ، وتمكن أفلاطون من عقله عن طريق الفيلسوف الأنطاكى ليبانيوس الذى تتلمذ الأمير الشاب على محاضراته ، وتملكت الأفلاطونية المحدثة فؤداه عن طريق إديسيوس Edesius وماكسيموس Maximus وكريسنتوس Chrysanthius وثمستيوس Themistuus وجمع فى شخصه من خلال قراءاته بين شخصية الاسكندر الفاتح وماركوس أوريليوس الرواقى .

وقد أيقن جوليان أن أرباب الرومان بحالتها الراهنة وطقوسها العقيمة ، من المستحيل أن تقيم للديانة الوثنية جداراً يريد أن ينقض ، ورغم أن معاول الهدم التى أعملها فيها بغير عمد عمه قسطنطين ، وبلامورابة أبناء عمه الثلاثة ، لم تكن قد تركت بصماتها واضحة بعد ، إلا أنها أقحمت

---

(٢٢) Id.

(٢٣) ول ديورنت ، قصة الحضارة، م٤، جـ١ ، ص ٣٥ – ٣٦.

على كهولة الوثنية شيخوخة لابد آتية .ومن ثم كان علاج هذه الحال يستدعى ذكاء خاصاً تمتع به الإمبراطور ، لذا لم يجد غضاضة مطلقا فى أن يحذو حذو أعدائه ليصلح شأن ديانته . فآباء الكنيسة كانوا قدآمنوا يقيناً منذ البداية ، أنه إذا أريد للمسيحية أن تمضى إلى طريق أمم وأن تحقق انتشاراً ، فلابد لها أن تتخلى عن جوهرها اليهودى ، ولابد لها أن تتفلسف ، أى تمتزج بالفلسفة ، وهذا هو ما حدث بالفعل خلال القرون الخمسة الأولى للميلاد ، وكانت مدرستا الاسكندرية بفكرها الأفلاطونى ، وأنطاكية بنهجها الأرسطى ، علماً على هذه الدراسات اللاهوتية آنذاك ، حتى أمسى التراث اليونانى فى الفكر والفن والآداب والأساطير فى قالب مسيحى ، وغدت المسيحية فى جوهرها تراثا يونانيا ، وأضحى من المستحيل التمييز بين هذه وذاك . ولقد عبر أحد الباحثين المحدثين عما نحن بصدده تعبيراً دقيقا حين قال : "إن الأفلاطونية جزء من البناء الحيوى للاهوت المسيحى بحيث يستحيل استحالة مطلقة أن تفصل الأفلاطونية عن المسيحية دون أن تمزق هذه تمزيقاً "[٢٤] . ويعلق الفيلسوف المعاصر برتراند رسل على ذلك بقوله : "من المستحيل أن تختلف مع "إنج" فيما يقوله عن تأثير أفلاطون وأفلوطين فى المسيحية"[٢٥] .

وكانت دروس أستاذه ماكسيموس الصورى ، المتضلع فى الأفلاطونية المحدثة ، قد ملكت عليه فكره وعلق به عباراته القائلة "الله الأب الذى صور كل ما هو كائن ، أقدم من الشمس ومن السماء وأعظم من الزمان ومن الخلود ومن مجرى الكينونة ، لا يستطيع أن يسميه مشترع أو أن ينطق به صوت أو أن تراه عين ، لكنا لعجزنا عن إدراك جوهره نستعين بالأصوات والأسماء والصور والذهب المطروق والعاج والفضة والنبات والأنهار والسيول وقمم الجبال فى إشباع حنيننا إلى معرفته ، ونداري عجزنا بأن ننحت من طبيعته أسماء لكل ما هو جميل فى هذا العالم ، فإذا ما تاق يونانى لأن يتذكر الله حين يبصر تحفة فنية من عمل فيدياس ، أو مجد غيره ذكراه بعبادة حيوان أو نهر أو نار ، فإن اختلافهم عنى لا يغضبنى ، وكل ما أطلبه اليهم أن يلاحظوا وأن يذكروا وأن يحبوا"[٢٦] .

وما يقوله ماكسيموس هنا يعود بنا إلى ما قاله أستاذه أفلوطين نفسه فى التساعية الرابعة "إن القدامى من الحكماء الذين أرادوا أن يتمثلوا الآلهة أمامهم بتشييد معابد وتماثيل ، قد أحسنوا تفهم طبيعة الكون ، وأدركوا أن من اليسير دائماً جذب النفس الكلية ، وأن من الأيسر إبقاؤها بتشييد شئ

---

[٢٤] قائل هذه العبارة العميد انج أحد أساتذة اللاهوت المحدثين فى الغرب، راجع كتابنا "مصر فى العصر البيزنطي، بالاشتراك مع د. طارق منصور، الفصل الثاني، وأيضاً راسل، تاريخ الفلسفة الغربية، جـ١، ترجمة زكى نجيب محمود ص ٤١٨ .

[٢٥] نفسه.

[٢٦] Murry, *History of Greek Sculpture*, I, p. 96.

يمكنه تلقى أثرها وقبول مشاركتها . والتمثيل التصويرى للشئ ميال دائماً إلى تلقى أثر نموذجه ، فهو كمرآة تستطيع أن تتلقى صورته ، وأن الطبيعة ببديع صفاتها لتفطر الأشياء على صورة الموجودات التى تملك مبادئها ، ومن هنا نشأ كل شئ على أنه مبدأ كامن فى المادة ، يتلقى صورة مطابقة لمبدأ يعلو على المادة . وهكذا جعلت الطبيعة كل شئ على صلة مباشرة بالألوهية التى تولد على مثالها ، والتى تتأملها النفس الكلية وتسير فى خلق الأشياء وفقاً لها . فمن المحال إذن أن يوجد شئ لا يشارك فى تلك الألوهية ، ولا يقل عن ذللك استحالة أن تهبط تلك الألوهية إلى عالمنا الأرضى[٢٧] .

وهذا القول يصعد بنا بالضرورة إلى عالم المثل عند أفلاطون ، ونعنى بالذات مثال الخير الذى يقول عنه أفلاطون "إنه لا يدرك إلا بصعوبة ، لكنا لا ندركه إلا ونوقن أنه علة كل ما هو جميل وخير . هو الذى ينشر ضوء الحق على موضوعات العلوم ، ويمنح النفس قوة الإدراك ، فهو مبدأ العلم والحق ، يفوقهما جمالا مهما يكن لهما من جمال ، هو أسمى موضوع لنظر الفيلسوف ، والغاية من الجدل تعقله ، وإن جماله ليعجز كل بيان ، لا يوصف إلا سلباً ولا يعين إيجابا بنوع من التمثيل الناقص . وكما أن الشمس تجعل المرئيات مرئية وتهبها الكون والنمو والغذاء دون أن تكون هى شيئا من ذلك ، فإن المعقولات تستمد معقوليتها من الخير ، بل وجودها وماهيتها . ولو أن الخير نفسه ليس ماهية معينة ، وإنما شئ أسمى من الماهية بما لا يقاس كرامة وقدرة . إعلم أن الخير والشمس ملكان ، الواحد على العالم المعقول والآخر على العالم المحسوس"[٢٨] .

ويحتوى عقل جوليان جيداً فكرة الألوهية عند الأفلاطونية الأصيلة والمحدثة ، ويستلهم وحى النزعات الصوفية الشرقية السائدة فى الامبراطورية ، ويتمثل مبادئ وقيم الرواقية فى صورتها الرومانية ، ويوقر إلى جانب هذا كله أرباب الرومان ، كنوع من الاعتزاز والولاء للماضى ومجده وفخاره ، ويتجه بشغاف عقله وجماع فكره إلى الشمس ، الإله الزاهر فى زمانه، مثرا، ويتيه به عجبا و ولها ، ويقول عنه إنه منذ نعومة أظفاره لم يكن يتأمل الشمس فى وضح النهار فحسب ، بل فى الليالى المقمرة ، ويجهر جوليان بعقيدته متمثلة فى ثلاثة عوالم فى شكل ثلاث شموس ، أولها الشمس

---

[٢٧] مصطفى النشار : أفلوطين فيلسوف مصري أو الأصول المصرية لفلسفة أفلاطين ، بحث قدم إلى المؤتمر الأول للجمعية المصرية للدراسات اليونانية والرومانية – جامعة الإسكندرية ١٩٨٦، (مع خالص تقديرى وعرفانى للدكتور مصطفى النشار على تفضله بإطلاعى على مخطوط البحث) .

[٢٨] يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص ٨١–٨٢ . ويتصور أفلاطون الإله بخاطب الآلهة الذين صنعهم بقوله: "يا آلهة من آلهة أنا مبدعها وأبوها ، إذ هى مصنوعات أحدثتها محبوكة لا تنقصم عراها إن لم أشأ ذلك" وهذا النص أقرب إلى القول بوجود إله فوق كل الآلهة ، لأن ذلك الإله قد صنع من ضمن ما صنع تلك الآلهة" راجع: مصطفى النشار، فكرة الألوهية عند أفلاطون، ص ١٩٩.

العليا، المدركة، مصدر الكائنات، الحق المطلق ، مملكة المبادئ والعلل الأولى ، ثم الشمس المرئية ، يعنى عالم المادة ، وهو انعكاس للعالم الأول لكنه ليس انعكاسا مباشرا . وبين العالمين يقع عالم ثان ، العالم العاقل أو الشمس العاقلة . هكذا تتكون الشموس الثلاث ، المدركة أو الروحية ، والعاقلة ، والمادية . عالم العقل انعكاس للعالم المدرك ، وعالم المادة انعكاس لعالم العقل ، أى انعكاس لانعكاس . الشمس العليا تسمو عن الوصول إليها ، والشمس الدنيا أقل من أن تعبد ، أما الشمس الوسطى .. العاقلة ، هى الجديرة إذن بالعبادة ، فعبدها جوليان وسماها الملك الشمس Deus Solis [٢٩] .

ولنتوقف قليلا هنا لنصل شموس جوليان الثلاث بأقانيم أفلوطين الثلاثة ، الواحد والعقل والنفس ، "الواحد كامل لأنه لا يبحث عن شئ ولا يملك شيئا وليس بحاجة إلى شئ ، ولأنه كامل كمالا مطلقا يفوق كل تصور فهو قدرة خارقة ، فبينما هو بغير مكان لا يخلو منه مكان . الواحد مستحيل على التعريف ، وأنت أصدق فى وصفه إذا التزمت الصمت منك إذا استخدمت عددا كبيراً من الألفاظ كائنة ما كانت . الواحد لا يستطيع التقوقع داخل ذاته وإبداعه يحدث بالضرورة . وهكذا يبدع الإله الوجود بالفيض . جوهر عملية الفيض إذن هو الكمال المطلق للواحد ، ذلك الكمال الذى من فرط لا نهائيته يصدر عنه غيره بالضرورة . ومن جانب آخر فإن عملية الفيض والتى تعنى ضرورة الإيجاد أو الخلق ، أساسها عملية أخرى هى التأمل ، حيث أن أول ما يفيض عنه الإله (المطلق) (الواحد) هو "الحياة اللامحدودة" التى ما أن تفيض حتى ترتد إليه وتتأمله فتتخذه لها حداً وصورة وتصبح آنذاك كائناً معيناً ذا كثرة فى وحدة هى "العقل" . العقل إذن هو صورة الواحد ، فكأن التأمل هنا هو المرادف للإيجاد أو الخلق ، حيث صدر العقل عن المطلق نتيجة التأمل . والنفس أيضاً تصدر عن العقل نتيجة تأمله المطلق ، وللنفس جانبان .. جانب باطنى يمس العقل ، وجانب آخر يواجه العالم الخارجى ، نعنى كائنات العالم المحسوس التى نشأت نتيجة تأمل الوجود الأدنى للنفس أو ما يسميه أفلوطين مبدأ الطبيعة[٣٠] .

ويضيف أفلوطين : "أجل .. فالعقل الأعلى هو الشمس العاقلة ، وتليه مباشرة نفس تعتمد عليه ، مقرها فى العالم المعقول كالعقل ذاته ، غير أن النفس تهب الشمس المحسوسة حدودها الخاصة التى تلائمها ، وبتوسطها يتم الاتصال بين الشمس المحسوسة والشمس المعقولة ، فهى أشبه

---

(٢٩) Vasiliev, *History of Byzantine Empire*, I, p. 77.

(٣٠) أميرة مطر، دراسات فى الفلسفة اليونانية، ص ٩٣؛ راسل ، تاريخ الفلسفة الغربية، جـ١ ، ص ٤٢٣ – ٤٢٦ ؛ مصطفى النشار، أفلوطين فيلسوف مصري، ص ١٢ – ١٣.

برسول يبلغ الشمس المحسوسة رغبات الشمس المعقولة ، وينقل إلى هذه أماني الشمس المحسوسة"[٣١] .

وقد يأخذنا البحث بعيداً لنجد لفكرة "التأمل" هذه، بغض النظر عن مسألة "الثالوث" جذوراً بعيدة فى الديانة المصرية القديمة متمثلة فى " الأسطورة المنفية " ، التى يعود نسبها إلى مدينة منف ، حول تفسير نشأة العالم عن الإله بتاح الذى كان لسان الآلهة وقلبهم ، حيث يقول كهنة منف "إنه القلب الذى يسبب ظهور كل رأى يتم ، أما اللسان فهو الذى يعلن ما يفكر فيه القلب . وهكذا تم تشكيل جميع الآلهة" ، وفى الواقع فقد ظهر النظام الإلهى بواسطة ما فكر فيه القلب وما أمر به اللسان . ويعلق أحد الباحثين المحدثين[٣٢] على هذا النص بقوله : "إن هذه الأسطورة التى يرجع تاريخها لألف عام قبلنشأة الفلسفة اليونانية ، تبين أن ثمة عقلاً مسيطراً خالقاً ، عقل تصور مظاهر الطبيعة ثم أبدعها عن طريق ذلك التعقل وهذا التأمل . ولنلاحظ كيف عبر النص بوضوح عن فكرة أفلوطين التى تقول "إن كل الموجودات تصدر عن "التأمل" . ويضيف الباحث ، "تزداد هذه الأسطورة أهمية حينما نجدها تعبر عن فكرة أفلوطين عن اللوجوس التى حار الدارسون فى البحث عن أصلها لديه . وإذا كانت الأشياء فى تصور أفلوطين قد تشكلت من فيض إلهى ، فإن هذا يقرب الصلة بين فكر أفلوطين وما ورد فى أسطورة منف عن الخلق ، فالعالم قد نشأ عن كلمة إلهية أساسها تفكره وتأمله ورغبته فى الإيجاد .. فكان الإيجاد" .

وقد نميل إلى الأخذ بهذا الرأى إذا علمنا أن أفلوطين قد ولد فى صعيد مصر فى مدينة أسيوط Lycopolis وتلقى تعليمه وثقافته الأولى بها حتى بلغ الثامنة والعشرين من عمره . وتأثر بالتعاليم الهرمسية التى تعود إلى هرمس تحوت إله الحكمة والفنون فى مصر القديمة ، ثم انتقل إلى الاسكندرية حيث لزم فيها طوال إحدى عشرة سنة آتية أستاذه آمونيوس ساكاس Ammonius

---

[٣١] مصطفى النشار، المرجع نفسه، ص ١٧ .

[٣٢] المرجع نفسه، ص ١٤ – ١٥ . ويضيف الدكتور النشار فى البحث نفسه قوله : "إذا كان أفلاطون وأرسطو قد أعليا من شأن التأمل ، فجعله أفلاطون وسيلتنا لحدس عالم العقل والارتفاع منه إلى حدث مثال المثل (الحيز) ، وجعله أرسطو المهمة الأولى والأساسية للفيلسوف ، فبه نصل إلى معرفة الإله ، وبه نصل إلى حدس المبادئ الأولى ، إلا أن هذا الإعلاء من شأن التأمل عندهما كان مقصوراً على اعتبار أنه من أفعال الإنسان ، وهو مقصور على الفيلسوف وحده الذى يحقق أسمى مرتبة للتأمل الإنسانى وهو الذى يتشبه فى هذا بالإله" ص ١٣. وللوقوف على أسطورة منف راجع للدكتور النشار، فلاسفة أيقظوا العالم، ص ٢٤ – ٣١؛ ويلسون، الحضارة المصرية، ترجمة أحمد فخرى، ص ١٢٢–١٣٠ ؛ برستد، فجر الضمير، ترجمة سليم حسن، ص ٥٣ وما بعدها؛ عبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم، ص ٨٨ – ٨٩ .

Saccas الذى يصفه القديس جيروم بأنه "رجل الاسكندرية والفيلسوف المقتدر"[٣٣] . ولما كانت الاسكندرية آنذاك واسطة العقد بين الشرق والغرب فقد أضحت تمثل بؤرة الثقافات المختلفة والعديدة ، ساعدها على ذلك أن سلطان أثينا من الناحية الفلسفية راح يضعف منذ أواخر العصور القديمة ، وذلك بعد انتشار الفلسفة وشيوعها فى حوض البحر المتوسط بين آسيا الصغرى وروما . وكانت الاسكندرية مركزاً لهذا الانتشار والانتقال[٣٤] .

وقد دفع حب أفلوطين للتعرف على الأفكار الشرقية عند الفرس والهنود ، إلى الاشتراك فى الحملة العسكرية التى جردها الإمبراطور الرومانى جوردان الثالث (٢٣٨ – ٢٤٤م) على فارس . ومع أن هذا الجيش قد أفلح فى طرد الفرس من سوريا إلا أنه لقى هزيمة قاسية فى العراق ، مما شجع أفلوطين على الالتجاء إلى أنطاكية ، ومنها ارتحل إلى روما فى الأربعين من عمره ، وأقام بها حتى وفاته . وفى العاصمة الإمبراطورية بدأ يدرس نصوص الفيلسوف السكندرى نومينوس الذى كان يميل إلى المذاهب الشرقية ، وهو صاحب القول المأثور "إن أفلوطين لم يكن إلا موسى يتحدث اليونانية" . وكانت فلسفته كما كانت فلسفة أفلوطين تستهدف طمأنينة النفس وسكينة القلب قبل كل اقتناع عقلى[٣٥] .

ليس غريباً إذن والحالة هذه أن نجد أصولاً مصرية قديمة ، فى إطار الحضارات الشرقية بصفة عامة متأصلة فى الأفلاطونية المحدثة . هذا بالطبع إلى جانب استيعاب صاحبها للفلسفة الإغريقية عند أفلاطون ، ولم يكن هذا مستغرباً أيضاً عند صاحبنا الإمبراطور جوليان ، الذى كان تأثره بأفلوطين وأستاذه البعيد واضحاً ، كما كان تأثره بالاتجاهات الصوفية التى تسود الإمبراطورية آنئذ بينا ؛ ذلك أن الإلمام الواسع بالفكر اليونانى والثقافة الهلنستية عامة ، كان قاعدة ضرورية يستحيل الخروج عليها لمن يسعى إلى التثقيف الحقيقى ، أما نزعات التدين وتعدد مذاهب هذا التدين ، فهما سمتان بارزتان فى تلك الأيام[٣٦] . ولعل انتقال آمونيوس ساكاس أستاذ أفلوطين وفرفوريوس تلميذه من المسيحية إلى الأفلاطونية ، وتنقل القديس أوغسطين من الوثنية التعددية إلى المانوية الثنوية إلى المسيحية ، خير شاهد على مثقفى مجتمع ذلك الزمان .

---

(٣٣) HIER. *De viris illustribus*, 55.

(٣٤) نجيب بلدى، تمهيد لتاريخ مدرسة الاسكندرية وفلسفتها، ص ٦١ – ٦٢.

(٣٥) للمزيد من التفصيلات، راجع : يوسف كرم ، المرجع السابق، ص ٢٨٦ – ٢٨٧ ؛ مصطفى النشار، أفلوطين فيلسوف مصري، ص ٥ – ٦؛ غسان خالد ، أفلوطين رائد الوحدانية، ص ١٧ وما بعدها.

(٣٦) غسان خالد، أفلوطين، ص ١٩ – ٢٠.

لكن الأمر يبدو غاية فى الغرابة إذا حاولنا أن نخرج بهذه المسألة من نطاقها الخاص لنضعها على بساط العمومية ، بتعبير آخر ، أن ننقلها من عالم الخاصة المثقفة إلى دنيا الناس. وهنا لا نجد فرقاً بين ما فعله ويفعله آنذاك آباء الكنيسة مع المسيحية ، وما يفعله الآن جوليان مع الوثنية، حتى أن الإمبراطور قسطنطين العظيم أدرك منذ البداية خطورة هذا الأمر ، وضمنه صراحة فى رسالته التعزيزية التى بعث بها إلى كل من إسكندر أسقف الأسكندرية وآريوس قسيسها عام ٣٢٤ ، زمان اشتداد الخلاف بين الرجلين حول لاهوت المسيح وناسوته[٣٧] ، وقال لهما بالحرف الواحد "خطأ فى البدء أن تطرح القضايا على هذا النهج ، والخطأ بعد فى نقاشها ، فمسائل الجدال هذه – وليس لها من الشرعية نصيب وتمليها روح صراع وليد فراغ أسئ شغله ، حتى ولو قصد بها رياضة الذهن، ينبغى أن تظل حبيسة فكرنا ، بعيدة عن آذان الجموع . أليست قلة تلك التى تعى مثلها ؟ فهى أمور ذات طبيعة خفية . ولنقل إن واحداً قادرا على إدراكها ، فكم يا ترى من الجموع يلم بها ؟ وحتى هذا الذى يعيها أتراه لا يحيد عن سوى الصراط ؟ يتحتم علينا من ثم أن نقصد فى القول لأننا لا نقوى وطبيعة الحال على أن تفسر تلك المسائل ، ولئن استطعنا إلى ذلك سبيلاً فمن من السامعين عساه أن يفهم ، فالرعية لسبب أو لآخر قد تجدف أو تنشق" .

وجوليان نفسه كان يدرك جيداً مدى الصعوبة التى تعترض طريقه فى هذا السبيل ، وعبر عن ذلك بقوله : "إنى فى حاجة ماسة إلى عون الكثيرين كى نقيم ثانية ما هوى فى أيام الشر[٣٨] ، وهو يعنى بعبارته الأخيرة هذه ما فعله أبناء عمه ، الأباطرة المسيحيون الثلاثة بالوثنية معابدا وطقوسا . لكنه مع هذه الإدراك كان يؤمن فى الوقت نفسه بضرورة مساهمة جميع أجهزة الدولة وكهنة المعابد والمثقفين لإعادة إحياء عبادة الأرباب فى شكلها الفلسفى الجديد الذى آمن به جوليان ممثلاً فى "الملك الشمس" .

كانت المسألة تبدو لجوليان والمعاصرين سباقاً أو إن شئنا الدقة ، صراعاً بين ديانتين متنافستين ، إحداهما بلغت من العمر أرذله ، وأنهكت قواها الأيام وشاخ أربابها وبهتت طقوسها ومالت الدولة عنها . والثانية فى مقتبل عمرها ، صقلتها جراحات الاضطهاد وويلاته ، وسعى آباؤها بالجهد كله من أجل إضفاء الصبغة العقلانية عليها بمزجها بفكر اليونان وفلسفاتهم ، ومالت الدولة إليها . هو صراع بين دين ذاهب ودين آت ، بين عقيدة توشك أن تموت وأخرى توشك أن تستوى .

---

(٣٧) EUSEB. *vita Const.*, II 69.

وللمزيد من التفصيلات عن الصراع بين إسكندر وآريوس وموقف الإمبراطور ورجال الكنيسة، راجع للباحث ، الدولة والكنيسة ، الجزء الثاني، الفصلين الخامس والسادس .

(٣٨) Vasiliev, *Op. Cit.* I, p. 77.

من هنا فإن حماسة جوليان المتدفقة من أجل أن يبعث فى الوثنية حياة كانت تبدو لأعين الرائين سراباً بقيعة !

لقد راح جوليان يلغى القوانين التى كانت قد صدرت ضد الوثنية ، ويعيد فتح المعابد التى أغلقت ، ويصلح تلك التى تهدمت[٣٩] ، ويكتب والآمال تحدوه فى خيرية عمله إلى كهنته ناصحاً بدراسة آراء فيثاغورس وأفلاطون وأفلوطين والرواقيين ، وهى الآراء التى تقر أن الأرباب تدبر شئون الدنيا بعنايتها ، وأن إحسان هؤلاء الأرباب هو مصدر كل نعمة دنيوية ، وأنهم قد أعدوا للنفس الإنسانية ما تستحقه فى المستقبل من عقاب أو ثواب[٤٠] . ويهيب بسدنة الأرباب أن يرتفعوا فوق مستوى الشبهات . وأن يعيشوا حياة نقية طاهرة تليق بمكانتهم فى المجتمع ، وطلب إليهم أن يمتنعوا عن ارتياد المسارح وغشيان الحانات . ونقف من رسالة بعث بها إلى أرساكيوس Arsacius كاهن غلاطية Galatia على رغبته الشديدة فى أن يرى هناك –تقليداً للمسيحيين – صوامع للرجال والنساء كل على حدة ، تضم الذين يعشقون الفلسفة وحياتها ، وآماله فى أن توجد للوثنية ملاجئ يأوى إليها الغرباء ، ويلقى المرضى فيها والضعفاء علاجاً ناجعاً وعوناً[٤١] . وقد جاء فى إحدى خطبه إلى كهنته قوله : لم أر يهودياً يتسول وحتى هؤلاء الجليليين الخبثاء لا يمدون يد العون لفقرائهم فقط بل إلى فقرائنا أيضاً "[٤٢] . ولم يقف الأمر بجوليان عند هذا الحد ، بل كان يشارك بنفسه بحماسة منقطعة النظير فى تقريب القرابين على المذبح إرضاء لإلهة ، وكان كما يحدث عنه ليبانيوس ، "يطوف حول المذبح يوقد النيران ويمسك بالسكين ويذبح الأضحيات ويحيط علماً بكل ما فى أحشائها"[٤٣]، ويسرف فى الذبح إلى الحد الذى بـُعث من جديد ما كان قد شاع على عهد سلفه وأثيره ماركوس أوريليوس من القول بأن البهائم التى أضر بها كثرة ما قدم من بنى جنسها قرباناً ، كتبت إلى الأمبراطور برقية جاء فيها : "من المواشى البيض إلى القيصر ماركوس "تحية" إذا كتب لكم النصر فعلى قطيعنا السلام!! [٤٤] .

---

(٣٩) Jones, *The decline of the Ancient world*, p. 59.

(٤٠) Gibbon, *Decline and Fall of the Roman Empire*, Ch. XXIII .

وراجع الترجمة العربية، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، جـ٢، ترجمة لويس اسكندر، ص ٢٥ – ٢٦.

(٤١) SOZOM. hist. eccl. V., 16.

(٤٢) Chadwick, *The early church*, p. 157.

(٤٣) *Oratio* XII, 82 (Quoted in Vasiliev, *Op. Cit*., I, p. 72)

(٤٤) AMM. MARC. *Res gest.*, XXV, 4.

وواضح أن البدايات الأولى فى حياة جوليان كانت نقطة الإنطلاق التى لا رجعة بعدها فى تكوين عقل الأمير الشاب ، فقد دفع به عمداً من جانب القصر إلى أيدى رجال الإكليروس ليلقنوه دون فهم يبتغيه مبادئ المسيحية وتعاليمها وطقوسها ، ويناولونه قسراً شركة التناول ، ويمنحونه دون إدراك منه لحقيقة ما يجرى سر المعمودية ، مما دفعه إلى أن يكتب قائلاً إنه ظل طيلة حياته يتذكر يوم عماده كما لو كان كابوسا مروعا يتمنى لو ينساه[٤٥] . وقد عمق لديه هذه المشاعر ما فتح عليه عينيه منذ البداية ، أعنى تلك المذبحة المروعة التى ذهب ضحيتها أفراد أسرته باستثناء أخيه جاللوس لمرضه وهو بالطبع لطفولته[٤٦] ، على يد ابن عمه الإمبراطور قسطنطيوس غداه اعتلائه العرش سنة ٣٣٧ خلفاً لأبيه قسطنطين ، لا لشئ سوى التخلص من هواجس تملكت عليه نفسه القلقة ، وأوقعت فى روعه أن واحداً من هؤلاء يوماً ما ربما يزاحمه على العرش !! وتضحك الأقدار عندما يصبح جوليان نفسه الذى أنقذته طفولته من المذبحة هو نفسه ذلك الغيب الذى كان يخشاه قسطنطيوس !! وارتسمت صورة المسيح فى مخيلة جوليان ، على هيئة ابن عمه ذاك "الغطريس" ، "سفاح العائلة الملكية"[٤٧] كما كان يحلو له دائماً أن يسميه .

ولقد راح جوليان يقارن بين فرضيات مسلمة يجرعها إياه رجال الإكليروس ، وآراء وأفكار يطرحها على عقله للمناقشة اساتذته من الفلاسفة . ويعلق جيبون على ذلك بقوله : "لا شك أن حالة الكبت هذه كان من شأنها أن تلهب ولاءه لعقيدة الأرباب . ولما كان كل عمل من أعمال الرياء هو بالضرورة شيئاً يؤلم الروح البشرية الصادقة ، فإن ادعاء المسيحية زاده كراهية لديانة تكبت حرية عقله وتضطره إلى التمسك بمسلك تنفر منه أنبل صفات الطبيعة البشرية ، صفة الإخلاص وصفة الشجاعة[٤٨] . ونمضى مع جيبون وهو يصور العلاقة بين جوليان ومعلميه من رجال الكنيسة فنجده يقول : "كانوا يرسمون للأمير الشاب قوالب جامدة صارمة تحدد أفكاره وكلماته وأعماله ، وكانوا يخرسون اعتراضاته ويكبتون حرية الاستفسار عنده فى عنف وقسوة . لقد اقترنت فكرة العبودية عنده من جراء ذلك بفكرة الدين ، وبخاصة وأن جوليان كان يتمتع بروح استقلالية ترفض التسليم بما يتطلبه رجال الكنيسة المتعجرفون باسم الدين من طاعة عمياء وانقياد سلبى ، وتأبى تلك القوانين التى يصدرونها فى صورة مقدسة لا تقبل الجدل ، يحميها إرهاب العذاب الأبدى ، لذا كانت عبقريته التى

---

(٤٥) Vasiliev, *Op. Cit.*, I, p. 69.

(٤٦) لم يلبث الإمبراطور قسطنطيوس أن أعدم جاللوس بعد ذلك بعدة سنوات (عام ٣٥٤م) بعد أن اتهمه بإساءة السلطة ، وكان قد عينه قيصراً على الشرق أثناء غيابه هو فى الغرب لمحاربة الثائر ماجننتيوس Magnentius الذى كان قد قتل قنسطانز إمبراطور الغرب.

(٤٧) Kidd, *A history of the church*, II, p. 183.

(٤٨) اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، جـ٢ ، ترجمة لويس اسكندر ، ص ٣٢.

تتحرق إلى المرعفة شوقاً تدفعه سراً إلى التمرد على سلطان معلميه الكنسيين"[٤٩] . هذا على حين كان أساتذته الفلاسفة الذين أعجبهم ذوق تلميذهم الملكى وتحرره ، قد عقدوا صلة وثيقة بين علم اليونان وديانتهم ، وبعد أن كانت أشعار هوميروس موضع الإعجاب باعتبارها نتاجاً أصيلاً للعبقرية الإنسانية ، أصبحوا ينسبونها فى جدية إلى الوحى السماوى الصادر عن الإله أبوللو وآلهة الشعر والفنون ، لذلك اتخذ جوليان لنفسه عقيدة لها أوسع الأبعاد ، وازدرى ذلك الخضوع للإنجيل ، بينما قدم عقله بمحض اختياره قرباناً على مذبح الإله جوبينر والإله أبوللو"[٥٠] .

هذه الحقيقة سجلها المؤرخ الوثنى أميانوس ماركللينوس بقوله "إن جوليان كان منذ نعومة أظفاره يبدى ميلا إلى عبادة الأرباب ويزداد بها تعلقاً كلما تقدم به العمر ، إلا أنه أمام عدد من المحاذير حفظذلك سراً قدر ما استطاع ، فما تبددت مخاوفه ووجد لديه الحرية ليفعل ما يُسر به قلبه، أفصح عن مكنون عقله"[٥١] . بينما يعبر الفيلسوف الأديب ليبانيوس بقلمه الرشيق عن ذلك قائلاً : "لقد أعيد جمال الحق إلى عقل جوليان بعد أن تطهر من أخطاء تعليمه وحماقاته وتغيرت أحاسيسه فعلاً . غير أن خطورة تصريحه بتلك الأحاسيس أرغمته على إبقاء مسلكه كما كان دون تغيير، وهو لم يفعل كما فعل الحمار فى قصة إيسوب[٥٢] الذى أخفى نفسه فى جلد الأسد ، بل إن أسدنا اضطر إلى إخفاء نفسه فى جلد حمار ، ورغم أنه آمن بما أملاه عليه عقله ، إلا أنه رضخ لقوانين الحرص والضرورة"[٥٣] .

وضع جوليان فوق كتفه ، على امتداد ذلك المكث الطويل لقسطنطيوس على العرش الرومانى ، عباءة المسيحية ، لكنه كان كما يصفه مؤرخو الكنيسة "إيمان الخوف"[٥٤] . وليس لمثل هذا الإيمان أن يجلب إلى النفس سكينة فى الدين ترتجيها .وكان حتماً مقضياً على رجل له عقل جوليان وفكره وثقافته ، أن يلتمس هذه فى غير المسيحية ، وبخاصة أن هذه العقيدة تبدت له تارات أخرى فى أساقفها يلتفون من حول العرش يسبحون بحمد الامبراطور ويحنون الهام له إجلالا[٥٥] ،

---

[٤٩] نفسه ، ص ٢٠.

[٥٠] نفسه ، ص ٢١ .

[٥١] AMM. MARC. *Res gest.*, XXII, 5.

[٥٢] راجع جيبون ، اضمحلال الإمبراطورية ، جـ٢ ، ص ٣١.

[٥٣] نفسه.

[٥٤] SOCRAT. *hist. eccl.*, III, 1; SOZOM. *hist. eccl.*, V, 2.

[٥٥] كان من جراء السياسة الجديدة التى اتبعتها الدولة ابتداء من عهد قسطنطين برفع الاضطهاد عن المسيحيين وتقديم العون للكنيسة ، والتدخل المباشر فى الخلافات العقيدية الدائرة من حول المسيح ، أن

فعافت نفسه مهانة العقيدة من أجل السلطان .وكان هذا واضحاً فيما أمر به كهنته من بعد بعدم السير فى ركاب حكام الأقاليم وألا يخفوا لاستقبالهم إذا قدموا عليهم ، فاحترام العباد لهم ينبع من احترامهم لأنفسهم[٥٦] . ومن قبل رأى المسيحية تفرض عليه فى نصوص لايدرك من كنهها شيئاً ، وطقوس ليس من حقه أن يعلم ما تخبئه الكنيسة وراءها من أسرار ، وتحرم عليه حتى أن يتأمل كل ما هو إلىقلبه حبيب ، حين تنكر على اليونان والرومان ما أتموه فكراً وما أبدعوه فناً . ولم يكن جوليان يريد إيماناً على هذا النحو ، ولا عقيدة بهذه الشاكلة ، ولا معرفة دون عقل ، ولا علماً دون فكر ، ولا ديناً دون ذوق ..وهكذا لم يكن غريباً أن تفتحت مداركه بفلسفة ماكسيموس وجداله ومنطق ليبانيوس وبيانه .

ولم يدع مؤرخو الكنيسة هذه الفرصة تفوت دون أن ينسجوا بأقلامهم روايات تتحدث عن بواكير الوثنية عند جوليان ، من ذلك مثالاً لا حصرا ما يذكرونه عندما كان الأخوان جاللوس وجوليان مبعدين فى قلعة ماكللوم ، وشرعاً فى إعادة بناء قبر الشهيد ماماس Mammas واقتسما العمل فيما بينهما ،وغذا بعمل جاللوس يسير حثيثاً بينما يتهاوى ويتصدع عمل جوليان ، فاعتبر الناس ذاك آنذاك معجزة ، وراحوا يشككون فى صحة مسيحية جوليان ، وأنه لابد يسر غير ما يعلن ! ويعلق ثيودوريت على ذلك بأن القديس رفض تقدمة جوليان[٥٧] ! .

من هنا لصقت صفة المرتد Apostateبجوليان من بعد مع أنه لم يكن يوماً ما مسيحياً كما علمنا من قبل من كتابات المؤرخين الوثنيين والكنسيين على السواء . ومن الأهمية بمكان أن ندرك أن التنقل بين ديانة وأخرى فى تلك الأيام عند خاصة المثقفين لم يكن أمراً ذا بال ، فهذا آمونيوس ساكاس أستاذ أفلوطين ، وفرفوريوس تلميذه يتحولان من المسيحية إلى الأفلاطونية[٥٨] وأوغسطين يتنقل بين الوثنية والمانوية والمسيحية ، ونكتاريوس Nectarius بطريرك القسطنطينية فى أخريات القرن الرابع ، وأمبروز Ambrosius أسقف ميلانو حوالى الفترة نفسها ، فوجئت الجموع عند

يصبح البلاد الإمبراطورى قبلة عدد كبير من الأساقفة يحجون إليه دوما بحثا عن التأييد لرأى ، أو كسبا لمصلحة ، حتى أن مؤرخ الكنيسة الشهير فى القرن الخامس الميلادى ، سقراط ، يقول بأسلوبه الساخر ، "الأباطرة يروحون ويجيئون والأساقفة من حولهم يتحلقون ويطوفون " ومن ثم أطلقنا على هؤلاء لقب "أساقفة البلاط" .

SOCRAT. *hist. eccl.*, III, 24.

(٥٦) SOZOM. *hist. eccl.* V, 16.

(٥٧) Ibid. V, 2; THEOD. *hist. eccl.* III, 1.

(٥٨) غسان خالد ، أفلوطين ، ص ١٩.

اختيارهما لمنصبيهما أنهما لم يتناولا بعد سر المعمودية[٥٩] وجريجروى النازيانزى Gregorius Nazianzenus أبو للاهوت الكبادوكى الأشهر فى منتصف القرن الرابع الميلادى كان تلميذاً فى الوقت نفسه مع الأمير الشاب جوليان فى جامعة أثينا الوثنية[٦٠] . ومن ثم لم تكن مسألة التحول من المسيحية إلى الوثنية آنئذ أو العكس عند خاصة المثقفين شيئاً يجلب العار ، ما دامت المسيحية قد تفلسفت وباتت مسيحية مفلسفة ، وغدا المصدر واحداً . ولو لم يعتل جوليان عرش الإمبراطورية لما وصم مرتداً .

وبالاعتزاز بالرومانية وبالولاء الرومانى للماضى كما نفهمه النبالة الرومانية ، أثارت هذه العقيدة المحدثة لـ "الجليليين" ، احتقار جوليان ، كما أثارت فى الوقت نفسه شفقته . ولما كان يونانى الثقافة مولعاً بالآداب اليونانية ، بدا له الكتاب المقدس مجرد انعكاس باهت ومشوه لبعض الشذرات التى كانت عزاء له فى فترة اعتكافه الإجبارى قبل اعتلائه العرش[٦١] ، ولأن الديانة التى أخذ بها الإمبراطور الفيلسوف تعتبر التقوى والعلم صنوين لا يفترقان ، فقد رفع الفلاسفة والعلماء مكاناً علياً ، وخف بنفسه لاستقبال أستاذه ماكسيموس عندما علم بوصوله قاطعاً خطابه الذى كان يلقيه أمام السناتو ، معانقاً إياه ، آخذا بيده إلى وسط الاجتماع معترفاً أمام الجميع بفضل أستاذه عليه ، وبما اكتسبه على يد هذا الفيلسوف . ومن البديهى إذن أن يسارع جمهور من الشعراء والفلاسفة وأرباب الخطابة والبيان إلى البلاط الإمبراطورى ، ليشغل بهم جوليان الوظائف الشاغرة التى كان يشغلها الأساقفة قبل قليل[٦٢] .

وكان جوليان يؤمن يقيناً أن حجر الزاوية فى نجاح دعوته الجديدة من أجل الأرباب يتمثل فى الإصلاح التعليمى ، وكان المسيحيون على امتداد جيلين مضيا منذ رفعت الدول عنهم يد العذاب الدقلديانى ، قد راحوا يحتلون مواقع التدريس فى كثير من مدارس الإمبراطورية ، وأدرك جوليان خطورة هذا الأمر على عقول الناشئة من الوثنيين ، لذا أصدر مرسوماً يقضى بأن تتولى المدن عملية اختيار المدرسين ، على أن تتم الموافقة النهائية على ذلك من قبل الإمبراطور شخصياً . وهذا يعنى أنه أصبح من حق الإمبراطور رفض تعيين أى شخص لا يرغب فيه ، ثم شفع ذلك بما يعد الصفعة الحقيقية للمسيحية حين أصدر مرسومه القاضى بأن "كل من يتصدى لمهنة التدريس يجب أن يتحلى

---

[٥٩] للمزيد من التفاصيل عن هذه الأمور راجع للباحث ، الدولة والكنيسة ، الجزء الرابع ، ص ١٩ – ٢٣ ، ص ٧٢ – ٧٣.

[٦٠] GREG. NAZ. *Orat*. IV, 55-56; V, 33 – 34.

[٦١] *CAM. MED. HIST*. 1, p. 78.

[٦٢] جيبون، اضمحلال الإمبراطورية، جـ٢، ص ٤١.

بمكارم الأخلاق ، ولا يجب أن يضمر فى نفسه أفكارا تتنافى مع روح الدولة[٦٣] . وهذه العبارة الأخيرة تفصح دون مواربة عما يعنيه جوليان ، بمعنى أن كل من يزدرى أعمال هوميروس وهزيود وديموستنيز وهيرودوت وغيرهم من الكتاب الكلاسيكيين ، فإنه بالتالى يحتقر الأرباب التى كانت موضع التبجيل والتعظيم لدى هؤلاء . ومن السخف – كما أعلن جوليان – أن يتصدى المسيحيون لتعليم الآداب اليونانية فى الوقت الذى يهتفون فيه أرباب أعلامها[٦٤] . ومن ثم فعلى هؤلاء "الجليليين" أن ينسحبوا إلى كنائسهم ليعلموا ويفسروا ما قاله متى ولوقا[٦٥] . ويفسر أميانوس ماركللينوس الهدف من هذا المرسوم بقوله : "إن جوليان منع أساتذة البلاغة المسيحيين من التدريس إلا إذا تحولوا إلى عبادة الأرباب"[٦٦] .

لم تكن خطورة هذا القرار راجعة إلى ما جاء فى نصه الواضح ، بقدر ما كانت كامنة فى هدفه الخفى ؛ ذلك أن المسيحيين وبخاصة الأرستقراطيين منهم ، وجدوا أنفسهم أمام خيارين كلاهما مر، فإما أن يستمروا فى إرسال بنيهم إلى هذه المدارس التى غدا القائمون بأمر التدريس فيها وثنيين، ومن ثم تبهرهم الدعائية الوثنية ، وهو ما كان يبتغيه الإمبراطور[٦٧] ، وإما أن يحولوا بين أبنائهم وبين الذهاب إلى معاهد العلم هذه فيؤدى ذلك باتالى إلى خلق جيل جاهل متعصب غير قادر على الدفاع عن عقيدته أو التصدى لمفكرى الوثنية[٦٨] ، وهو ما سعى إليه جوليان . ولعل هذا بعينه هو ما فهمه حتى بعض المسيحيين المتأخرين ، فقد كتب أوغسطين يقول "ألم يقم جوليان الذى منع المسيحيين من التدريس أو تعلم الفنون الحرة Liberales litteras باضطهاد الكنيسة؟!"[٦٩] . وليس أدل على خطورة هذا القرار مما كتبه صديق جوليان نفسه ، أميانوس ماركللينوس، "إن حرمان المسيحيين من التعليم على هذا النحو ، يعد أمراً بالغ القسوة ويتحتم علينا أن نتناساه"[٧٠] .

ولا شك أن المسيحيين أصيبوا بصدمة عنيفة إثر الإعلان الجوليانى عن السياسة التى سوف تنتهجها الدولة فى عهده ، وتمثلوا قطعا من الليل مظلماً يوشك أن يلفهم سواده ، وعادت بهم

---

(٦٣) IUL. *opera* II 544, *Epistola* 42 (Quoted in Vasiliev, *Op. Cit*. I, p. 73)

(٦٤) AMM. MARC. *Res gest.* XXV, 4; AMBROS. ep. XVIII, 39.

(٦٥) IUL. LOC. cit. (Quoted in Vasiliev, *Op. Cit.* I, p. 74).

(٦٦) AMM. MARC. *Res gest.* XXV, 4.

(٦٧) Jones, *Later Roman Empire*, I, p. 122.

(٦٨) جيبون، اضمحلال الإمبراطورية ، جـ٢ ، ص ٥٥ – ٥٦.

(٦٩) AUG. *De Civitate Dei,* XVIII, 52.

(٧٠) AMM. MARC. *Res gest.* XXII, 10.

الذكرى إلى عهود الأباطرة الأسلاف الذين ساموهم سوء العذاب[٧١] ، واستبد بهم القلق خشية فقدان تلك الدعة التى تقلبوا فيها حتى الآن طيلة أربعين عاماً مضت منذ أصبح قسطنطين حاكماً للإمبراطورية فرداً عام ٣٢٣ . وتملك الرعب والفزع عليهم كل سبيل مخافة أن يطل الاضطهاد برأسه من جديد . ويترك المؤرخ الكنسى سوزومين وصفاً دقيقاً لهذه الحال حين يقول : "لقد قاسى المسيحيون من عذاب التوقع والانتظار لهذه الضائقة أكثر من معاناتهم لها بالفعل . لقد مضى زمان ألقوا فيه النعيم والأمان بعد طول هوان ، وطاف بخيالاتهم ويلات العذاب التى لقيها الآباء والأجداد من قبل زمن الأباطرة المضطهدين[٧٢] .

لكن جوليان فجأ المسيحيين بتسامى الفيلسوف وتسامح المثقف ، ولعله كان يوقن تماماً أن انتظار العذاب أقسى من العذاب نفسه ! ويدرك بثاقب نظره أن اضطهاد الأباطرة الأسلاف لهذه الجماعة لم يزدهم إلا إصراراً وعناداً ، بحيث أصبح شهداؤهم غرس الكنيسة الأولى وقلاع العقيدة. من هنا راح جوليان يسلك نهج الفلاسفة لا مسلك الإمبراطور ، ويحكم باعتباره فيلسوفاً إمبراطوراً وليس حاكماً متفلسفاً ويستخدم ثقافته وذكاءه وصبره الطويل فى محاولة لاجتذاب هؤلاء "الجليليين" إلى عقيدته بالتسامح دون القهر والتنكيل ، ويردد دائماً "إن واجبنا يحتم علينا أن نعلم المخبولين لا أن نعاقبهم"[٧٣] ، ولم يجد المؤرخ الكنسى الناقد سقراط[٧٤] بداً من الاعتراف بهذه الحقيقة ، فيذكر أن جوليان تمكن من استمالة عدد من المسيحيين ليقربوا للأرباب بعض أقنعة وبعضاً أغراه ، ويقدم نماذج لهؤلاء وإن كان لا يستطيع أن يكتم غيظه تجاه ما يفعله الإمبراطور . ويعلق جيبون قائلاً "من المحتمل بل من المحقق أن إعادة الوثنية قد أظهر عدداً كبيراً من أدعياء المسيحية الذين كانوا بدافع

---

[٧١] عن أسباب هذه السياسة الإمبراطورية تجاه المسيحيين خلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد وطبيعتها ، راجع للباحث ، الاضطهاد الرومانى للمسيحيين من الفكر السياسى والاعتقاد الكنسى ، بحث منشور فى مجلة كلية الآداب – جامعة الإمارات العربية المتحدة ، العدد الثالث ١٩٨٧ .

[٧٢] SOZOM. *hist. eccl.* V, 2.

[٧٣] IUL. Opera II 544, *epistola* 42, (Quoted in Vasiliev, *Op. Cit*. I, p. 74.)

[٧٤] SOCRAT. *hist. eccl.* III, 15.

وراجع أيضاً ما يذكره اللاهوتى الكبادوكى الشهير جريجورى أسقف نازيانزا GREG. NAZ. *orat*. VII, 11-13 عن المناظرة التى دارت بين قيصر أخيه وبين الإمبراطور جوليان فى محاولة من جانب الأخير لاستمالته إلى ديانته ، ويفصح ذلك أيضاً عن سعة صدر الإمبراطور واتجاهاته الفكرية .

النفع المؤقت قد آمنوا بها ، ثم لم يلبثوا أن عادوا بعد ذلك بنفس الضمائر المرنة المطاطة إلى العقيدة التى اتخذها خلفاء جوليان[٧٥] .

وفى إطار هذه السياسة ومن منطلق الحرص على حرية الفكر التى يقدمها الفيلسوف الإمبراطور ، أصدر أوامره بعدم القيام بأى عمل عدائى ضد "الجليليين" أو إهانتهم أو إكراههم على تقديم الأضحيات للأرباب[٧٦] ثم ثنى جوليان ذلك بقرار لم يكن يقل خطورة عن برنامج الإصلاح التلعيمى الذى أعلنه . إذ لم يكد يمضى على اعتلائه العرش أكثر من شهرين وعدة أيام[٧٧] حتى أصدر فى فبراير ٣٦٢ قراراً ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب ، على طريقته ، يقضى بالعفو عن جميع أساقفة الكنيسة المنفيين ، الذين كان قسطنطيوس قد أبعدهم لاختلافهم فى الرأى وإياه حول طبيعة المسيح .ولم يكن هدف جوليان من هذا المرسوم بالطبع خالياً من الغرض ؛ فقد كان يعرف تماماً مدى الانقسام فى الرأى والصراع الفكرى الدائر بين آباء الكنيسة المسيحية حول لاهوت المسيح وناسوته ، وشاهد بعينى رأسه كم من الفرق المسيحية وزعمائها تصطرع فكراً وتستبق عملاً لتحصل على تأييد هذا الإمبراطور لها أو ذاك ، وهكذا فإن عودة هؤلاء من المنفى وإطلاق الحرية لهم فى الجدال ، يعنى تأجيج نيران العداء المذهبى المشتعلة بينهم من جديد ، مما يغرق الكنيسة حتى آذانها مرة أخرى فى صراع متجدد لا نهاية له ، فتقوض – كما كان يؤمل – نفسها بيديها[٧٨] .

بهذه الصورة التى بدت مترفعة عن ممارسة العنف والقسوة فى معاملة المخالفين فى الرأى فكراً وعقيدة ، سار جوليان ينفذ سياسته ويحكم الإمبراطورية ، ولم يجد القديس جيروم St. Hieronimus فى القرن الرابع الميلادى تعبيراً يطلقه على هذه السياسة الجوليانية تجاه الكنيسة سوى "الاضطهاد النبيل" وهو التعبير الذى استخدمه أيضاً من بعده المؤرخ الكنسى سوزومين فى القرن الخامس[٧٩] ليصف به الفترة ذاتها ؛ فلم يكن جوليان أبداً مضطهداً بالمعنى المعروف للكلمة، بل إن شكوى المسيحيين المرة والدائمة كانت تدور حول حرمانه إياهم من أن ينالوا مجد الشهادة[٨٠] . لقد كان المسيحيون يشاهدون "ردة" جوليان فى فزع وسخط ويخشون بطشه وقسوته ، غير أن توقعاتهم

---

[٧٥] جيبون، اضمحلال الإمبراطورية ، جـ٢ ، ص ٤٥.

[٧٦] SOCRAT. *hist. eccl.* III, 1; SOZOM., *hist. eccl.*, V, 5.

[٧٧] تولى جوليان العرش فى الحادى والعشرين من نوفمبر عام ٣٦١م.

[٧٨] AMM. MARC. *Res gest.* XXII 5; SOCRAT. *hist. eccl.* III 1; SOZOM. *hist. eccl.* V5.

[٧٩] SOZOM. *hist. eccl.* V 4.

[٨٠] *CAM. MED. HIST.* 1, p. 80; Jones, *Decline of the Ancient World*, p. 62.

هذه ومخاوفهم لم تتحقق ؛ فحاكم البلاد الجديد يتصف بإنسانية حكيمة وحرص على سمعته وعلى السلام . لقد تعلم من التاريخ والتفكير الفلسفى أن أمراض الجسم قد تعالج أحياناً بشئ من العنف المفيد ، غيرأن الآراء الخاطئة التى يعتنقها العقل لا يمكن أن تستأصل بالحديد والنار ، فقد تُجر الضحية كارهة مرغمة إلى المذبح ، لكن قلبها يظل ينبض بالنقمة والسخط على ذلك الرجس الذى تقترفه أيدى أعدائها ، ولا شك أن الظلم يزكى نار العناد الدينى ويزيده صلابة . وما أن تنحسر موجة الاضطهاد حتى يتوب الذين استكانوا واستسلموا ، ويرفع الذين استشهدوا فى سبيل دينهم إلى مصاف القديسين والشهداء[٨١] .

ولم يكن تعبير "الاضطهاد النبيل" الذى وصف به جيروم ومؤرخو الكنيسة سياسة جوليان تجاه المسيحيين، شيئاً منفصلاً عن شخصية الرجل ، بل كان هذا السلوك المترفع عن الأذى والغطرسة والخيلاء ، جزءاً من ذاته فى حياته الخاصة . فقد تخلى الامبراطور غداة اعتلائه العرش عن ذلك الجيش الكبير من العاملين فى القصر الإمبراطورى على اختلاف مهنهم ، ولم يستبق إلا عدداً قليلاً جداً يكاد يعد على أصابع اليد الواحدة لخدمته ، وراح على غير عادة أهل زمانه يبدى احتقاره الزائد لتلك الملذات التى يعدها تافهة ، ومن أن الرومان ، ابتداء من الامبراطور ونزولاً إلى رجل الشارع ، كانوا مولعين بمشاهدة رياضتهم المفضلة ، سباق العربات فى المضمار ، إلا أن جوليان لم يكن يخفى ازدراءه لذلك ، وإذا ما دفعته الظروف إلى مشاركة شعبه احتفالاته بمثل هذا السباق ، لم يكد يمضى أكثر من حضور خمسة أشواط على مضض من مجموع الأشواط الأربعة والعشرين ، ثم سرعان ما ينسحب فى ملل الفيلسوف الذى يعتبر كل لحظة لا يكرسها لخير شعبه أو تهذيب عقله ، عبثا وهباء . ويعلق جيبون[٨٢] على ذلك قائلا : "إنه بهذا الحرص الشديد على الوقت يبدو كما لو كان يطيل فترة حكمه القصيرة التى لم تتجاوز عشرين شهراً إلا قليلاً .

وإذا كان سلفه الأسبق دقلديانوس قد قدم نفسه لرعيته باعتباره إمبراطوراً مؤلها ، وأمرهم بالانحناء له بل السجود ، وأعلن أن كل ما يمسه الإمبراطور له صفة القداسة بدءاً الخزانة ، وإذا كان هذا الأمر قد عد آنذاك ضرورياً فى سبيل إعادة الهيبة للمنصب الإمبراطورى الذى فقد الاحترام إبان أزمة القرن الثالث الطاحنة ، وحقق بهذا "الترفع"نجاحاً بعيداً ، فإن جوليان تخلى عن هذا التعالى "الضرورى" ، و "المقيت"، فرغب عن أبهة العرش وعظمة السلطان ، ولم يبد اهتماماً خاصاً بمظهره أو ردائه ، وأطلق لحيته ، وخالط الناس وعاش حياتهم .وكان طبيعياً أن يظهر الناس وبخاصة فى

---

[٨١] جيبون، اضمحلال الإمبراطورية ، جـ٢ ، ص ٣٣ – ٣٤.

[٨٢] Ibid ويذكر جيبون أن فترة حكمه استمرت حوالى ستة عشر شهراً فقط ، لكن جوليان اعتلى العرش فى الحادى والعشرين من نوفمبر ٣٦١ ، ومات فى ٢٦ يونيه ٣٦٣ ، أى قرابة العشرين شهراً .

الشرق وقد اعتادوا منذ آلاف السنين تقديس حكامهم ورفعهم إلى مصاف الآلهة، احتقارهم لهذا الإمبراطور "المتواضع" ! وبلغ الحال بأهالى أنطاكية أنهم نظموا القصائد فى هجاء لحيته التى لم يحسن الإمبراطور تهذيبها وتنظيفها !! لكن جوليان الفيلسوف الذى سمع ذلك بأذنيه عندما قدم أنطاكية فى طريقه لحرب الفرس ، ضرب بسيف الإمبراطور عرض الحائط ، وراح يتحدى هجائية بمبارزة عقلية عندما وضع للرد عليهم عمله المشهور "كارهى اللحية" Misopogon .

وليس بمقدورنا هنا القول إن جوليان كان يمكنه أن يجنى ثمار غرسه وأن تؤتى سياسته أكلها ، لو امتد به العمر ، فالتاريخ ليس رجماً بالغيب . لكن الذى يمكن الاطمئنان إليه أن الرجل كان يجدف ضد التيار . فالوثنية بصورتها التى عرفها الناس فى زمانه ، كانت قد باتت عند الطبقة الأرستقراطية تقليداً ارتبط بذكريات مجد الرومان . وعند الجموع مجرد طقوس جوفاء لا تبعث أملاً ولا تحقق الرجاء . بينما أدار لها المثقفون ظهورهم مولين وجوههم شطر الفلسفة . وحتى عقيدة جوليان الجديدة لم تكن تقدم للبسطاء جديداً يستهويهم بقدر ما استهوتهم فكرة "المخلص" فى المسيحية . ولم تكن قادرة – حتى إن استطاعت – أن تضم إلى صفها الخاصة الذين كان لديهم من الفكر الفلسفى ما يغنيهم . ورغم ذلك فإن جوليان كان يحدوه الأمل فى أن تحقق سياسته على المدى البعيد أمله المنشود وبخاصة أن رنة فرح عامة قد سادت الأوساط الوثنية كلها على اختلاف اتجاهاتها فى بداية عهده ، عندما أعيد فتح المعابد وصيانتها وتقديم القرابين بشكل كبير ، وتعيين كهنة وقارئين ، واتاحة الفرصة أمام المبرزين من الوثنيين لملء الوظائف التى شغرت بانزواء المسيحيين .

غير أن هذا المدى البعيد لم يأت أبداً ، ولا تحقق بالتالى لجوليان ذلك الأمل المنشود ، فقد قرر الإمبراطور القيام بحملة عسكرية ضد فارس ، ويذهب المؤرخون إلى القول إن هذه الحرب لم يكن لها ما يبررها على الإطلاق ، وأن جوليان قد شنها دون مقدمات ، وإن كانوا فى الوقت نفسه يؤكدون أنه كان يتخذ من الإسكندر المقدونى نموذجاً يحتذى[٨٣] .

وهذه الفكرة ليست جديدة عند مؤرخين محدثين ، فقد أشار إليها صراحة منذ القرن الخامس الميلادى ، المؤرخ الكنسى الناقد سقراط بقوله إن جوليان كان يؤمن تماماً بما لقنه إياه أستاذه الفيلسوف ماكسيموس حول المجد والعظمة ، وأنه تبعاً لما يؤمن به الإمبراطور عن فيثاغورس وأفلاطون حول تناسخ الأرواح ، جعله يعتقد يقيناً أن روح الإسكندر المقدونى حالة فيه، أو أنه هو نفسه الإسكندر فى جسد ثان[٨٤] . بل إن جوليان نفسه قد عبر عن هذه النغمة بأسلوبه الخاص فى

---

(٨٣) Jones, *The decline of the Ancient World,* p. 61; *CAM. MED. Hist*. 1, pp. 81 – 83.

(٨٤) SOCRAT. *Hist. eccl.* III, 21.

رسالة على جانب كبير من الأهمية ، بعث بها إلى باسيليوس Basilius أسقف قيسارية كبادوكيا فى آسيا الصغرى ، وأحد آباء اللاهوت الكبادوكيين الثلاثة الأشهار فى القرن الرابع[٨٥] وقد جاء فى هذه الرسالة : "..وأنا أظهر للزمان دماثة خلق ولين جانب ، طباعاً لازمتنى مذ جئت إلى الحياة ، فإنى قد صيرت كل من تظلهم الشمس طوع أمرى ، أنظر هذى قبائل البرابرة جميعاً قد أتت تضع عند قدمى كل ولائهم والهدايا[٨٦] وهؤلاء هم الساجداريون Sagadarae القاطنون خلف الدانوب ، التائهون عجباً بوشم براق وخيلاء ، ويدانون الأناسى من بعيد ، وحوش هم وغرائب كائنات ، هم الآن يحبون ذلاً عند قدمى يودعون أنفسهم رهائن طاعة مشيئتى ، وعليهم أفرض السلطان " ، ثم يمضى قائلاً : "لكن لدى ما هو أهم ، إذ يجب أن أسير لتوى إلى فارس لأدحر ذلك "السابور" وأقهر سليل داريوس على أن يعطى لى الحزية عن يد وهو صاغر ، لأقحلن أرض الهنود والسراكنة ، وليعرفن الجميع سلطانى ، وليمسين الكل لى عبيداً "[٨٧] .

وبغض الظر عن كون هذه الرسالة تحمل تهديداً مباشراً ووعيداً للأسقف الكبادوكى باسيليوس ، إذ هى أصلا موجهة إليه ، بعد أن أعلن تحديه لسياسة الإمبراطور الدينية ورفض مهادنته ، إلا أنها تفصح فى الوقت نفسه عن أن هذه الحرب الفارسية التى كان جوليان يعد لها ، هى جزء من ذلك الصراع التقليدى الطويل بين الفرس والرومان ، والذى يعود به جوليان إلى زمن دارا ، أضف إلى هذا أن الإمبراطور قسطنطيوس كان قد لقى عدة هزائم متتالية فى مناوشات وقعت على جبهة الفرات ، تمكن سابور بعدها من احتلال آمد Amid وأوقع بالحامية الرومانية مذبحة مروعةوصلب القادةوباع الآخرين فى سوق الرق عبيداً [٨٨] ، ولم تتح الأحداث التى وقعت فى غالة وأدت إلى المناداة بجوليان إمبراطوراً على يد جنوده ، الفرصة لقسطنطيوس أن يواصل حربه ضد فارس ، فلما مات كان على خليفته أن يصل ما انقطع .

وليس بعيداً أيضاً أن يكون جوليان ، وقد امتلأ حماسة وزهوا على النحو الذى أفصحت عنه الرسالة التى أوردناها منذ قليل ، قد داعبته الآمال فى إمكان تحقيق نصر حاسم على الفرس تحت لواءه الملك الشمس " ، فيعلى بذلك فى نظر رعيته من قدر ربه الجديد ، ويفتح الباب بذلك الانتصار المأمول أمام ذيوع دعوته وانتشار دينه ، ويعيد إلى الأذهان ذكرى انتصارات الرومان الأقدمين تحت

---

[٨٥] جريجورى النازيانزى ، وجريجورى النيسابورى ، وباسيليوس القيسارى.

[٨٦] يشير هنا إلى الهزيمة المروعة التى أوقعها بقبائل الفرنجة فى موقعة ستراسبورج عندما كان قيصراً على غالة ، والتى علمت هذه القبائل احترام حدود هذه الولاية لمائة سنة تالية.

[٨٧] IUL. *ep. ad Bas*. (BASIL. ep. XL)

[٨٨] AMM. MARC. *Res gest*. XX, 4; Sykes, *A history of Persia,* pp. 416-417.

لواء "مارس" إله الحرب ورعاية "جوبيتر" رب الأرباب . ولانشك أن هذا كان ماثلاً فى ذهنه تماماً ، إذ نراه يرفض العرض الذى قدم به مندوبو الملك الفارسى لفتح باب المفاوضات معه لإحلال السلام ، ويردهم خائبين[٨٩] . ونراه أيضاً عندما حانت لحظة وفاته ، وقد أحاط به قواد جيشه وأخلص أصدقائه ، يحدثهم حديث من "يلقى الموت فى هدوء الفلاسفة" ، فلما أبصر الدموع تنحدر من مآقيهم راح يلومهم فى عنف وكأنه فى عنفوان قوته : "من العار أن تنتحبوا على إمبراطور يفنى فى ذات النجو والسماء ، الإله الأبدى[٩٠] .

In medio cursu florentium gloriarum hunc murui Clarum e mundo digressum.

ولم يكن جوليان – كما أسلفنا فى صدر هذا البحث – أول من ماتوا من الأباطرة صرعى، ولا كان آخرهم . وقد كان من الممكن أن يمر مصرعه بهدوء ودون ضجة لو لم يكن جوليان هو ذاك الذى عرفناه ؛ فالإمبراطور كان يقود جيشه بنفسه فى حرب ضد فارس ، وقتل على الأرض الفارسية وسط إحدى المعارك المتلاحقة بين الفرس والرومان . لكن المؤلفات الفارسية لا شتير صراحة إلى مقتله على يد أحد جند سابور ، كما أن الفيلسوف الأنطاكى الوثنى ليبانيوس – ربما – أقفل باب النقاش فى هذا الافتراض بذكره أن أحداً من الجنود الفرس لم يتقدم للحصول على الجائزة التى كان سابور قد أعلن عنها لمن يأتيه براس ذلك الجوليان[٩١] وفوق هذا فإن موجة الفرح الجارفة التى أظهرها المسيحيون آنذاك ، وسجلتها أقلام مؤرخى الكنيسة تركت انطباعاً عاماً لدى كثير من الباحثين بأن المسألة لم تكن مجرد سهم أصاب من الإمبراطور مقتلاً أثناء الحرب ، بل تتعداها إلى حادث تم بليل تدبيره وخطط له بعناية ، ولم يخف المؤرخون الكنسيون مشاعرهم ، وبالتالى مشاعر المسيحيين عامة إزاء مصرع جوليان ، بل راحوا يتسابقون فى تسجيل الروايات وخلق المعجزات التى تصور تماماً ما كان المسيحيون يتمنونه حقاً . ولم يتوان أنصار جوليان أيضاً على قلتهم فى تأكيد هذا المنحى ، وتفرقت بالروايات السبل حتى بات مقتل جوليان قضية منظورة فى محكمة التاريخ أمام دائرة الغموض ! .

هذا بعض يذهب إلى القول إن حادثة طعن جوليان بسهم قد تمت بناء على رغبة الإمبراطور نفسه[٩٢] . والأمر على هذا النحو يبدو انتحاراً أقدم عليه جوليان ، ربما يكون واقعه إلى ذلك كما يذكر أصحاب هذا الإدعاء ، حالة اليأس والقنوط التى انتابته إثر الفشل المتلاحق الذى

---

[٨٩] رأفت عبد الحميد ، الدولة والكنيسة ، جـ ٣ ، ص ٣٤٧ .

[٩٠] AMM. MARC. *Res gest.* XXV, 3.

[٩١] حديث ليبانيوس عن المكافأة التى أعدها ملك فارس لمن يقتل الإمبراطور جوليان .

[٩٢] Chadwick, *Op. Cit*. p. 158.

صحب حملته على فارس ، والتى كان يؤمل من ورائها الكثير على المستويين الخارجى والداخلى كما ألمحنا من قبل بقليل . وأملهم قد يضيفون أيضاً ما أصاب جوليان من الغم والحزن لعدم نجاح سياسته العقيدية ، وإخفاق دعوته لإحياء الوثنية فى ثوب جديد . وقد يستدلون على ذلك بأن الإمبراطور فى رحلته الطويلة من القسطنطينية إلى أنطاكية باتجاه فارس لم يلق ما كان يتمناه من الترحيب والتهليل ، ولم يجد ما كان يؤمله من امتلاء المعابد بالعباد والقرابين ، حتى فى أنطاكية نفسها لم يكن هناك فى معبدها إلا كاهن واحد شحب بفعل الزمن وجهه ، وقد تأبط "أوزة" جاء بها قرباناً .. وحتى على نفقته الخاصة !(٩٣).

ولعل جوليان كان يعلق على أنطاكية بصفة خاصة كبير أمل ، فهى مستقر أستاذه الفيلسوف ليبانيوس ، وهى المركز القديم للهلنستية شرقى البحر المتوسط ، تزهو بمعابدها الشهيرة فى ضاحية دافنى Daphneوألعابها الأوليمبية المحلية ، ومن ثم تمثل مركزاً هاماً وأخيراً فى سبيل إحياء الوثنية(٩٤) . ومن هنا كانت صدته فيها كبيرة خاصة بعد أن أظهر أهلوها سخريتهم تجاه وسلقوه بألسنة حداد ونظموا القصائد فى هجائه ، ثم لم يلبث أن فوجئ باندلاع النيران فى معبد أبوللو فى دافنى ، وكان هذا فى حد ذاته تحدياً صريحاً لسياسة جوليان الدينية واستفزازاً لمشاعر الإمبراطور .

وليس فيما سقناه عن شخصية جوليان وفكره وثقافته ما يشير إلى احتمال إقدامه على الانتحار هروباً ويأساً ، فقد أحاطت به من قبل كثير من الصعاب فترة التقيت من ابن عمه قسطنطيوس ، وحتى عندما دفع به إلى غالة دفعاً ليكون قيصراً عليها دون أدنى سابق معرفة بالشئون السياسية أو العسكرية ، إعتمد على فكره وثقافته فى كسب محبة جنوده وولائهم له ، وحقق بهم نصراً حاسماً على الفرنجة وأعاد تنظيم الإدارة المالية لغالة بصورة افتقدتها منذ زمن طويل(٩٥) . كما أننا لو تفحصنا بدقة ما يرويه المؤرخ المعاصر أميانوس ماركللينوس تفصيلاً عن الحرب الفارسية وتقدم جوليان بقواته صوب المدائن واقترابه منها إلى حد كبير ، واستخدام الفرس للخديعة والتغرير بالإمبراطور الرومانى فى أرض لا يعرف عن طبوغرافيتها شيئاً ، بعد أن أعياهم إيقاع هزيمة حاسمة به من خلال المعارك التى دارت بين القوتين ، لو علمنا ذلك لأدركنا أن كفة الحرب حتى لحظة إصابة جوليان لم تكن قد تحولت تماماً إلى صالح الفرس ، حتى أن واحداً من المؤرخين يعلق على ما دار فى إحدى معارك هذه الحرب بقوله : "لقد كسب وحى جوليان وإلهامه أرض المعركة أمام

---

(٩٣) SOCRAT. *hist. eccl.* III 17-18; SOZOM, *hist. eccl.* V 19; THEOD. *hist. eccl.* III 6.

(٩٤) Downey, *Ancient Antioch,* pp. 162-164; *A history of Antioch*, pp. 381–382.

(٩٥) AMM. MARC. *Res gest.* XVI, 12.

الرومان"[٩٦] . وهذا لا يعنى بالطبع أن الإمبراطور الرومانى قد كسب الحرب ، ولكنه يشير فى المقام الأول إلى أن روح جوليان كانت حتى لحظة إصابته متوثبة لا تعرف القنوط . لقد كانت الفضائل التى يتصف بها إلى درجة ما مستقلة عن حظه فى الحياة ، ومهما كان اختياره لطريقة حياته فإن شجاعته التى لا تتهاوى أو تتزعزع ، وذكاءه الوقاد ومثابرته القوية كانت كفيلة بأن ترقى به إلى أسمى مراتب مهنته أو تجعله أهلاً لتلك المكانة على أقل تقدير[٩٧] .

لقد شاهد الرومان بعد مائة وعشرين سنة من موت إسكندر سفروس إمبراطوراً لا يفرق – على حد تعبير جيبون – بين واجباته ومسراته ، ويعمل جاهداً للتخفيف من محن رعاياه وإنعاش روحهم ، ويحاول دائماً أن يربط السلطة بالجدارة والسعادة بالفضيلة ، حتى أن الحزبية والحزبية الدينية اضطرت إلى الاعتراف بسمو عبقريته فى السلم والحرب سواء بسواء ، وإلى التسليم فى أسف بأن جوليان "المرتد" كان محباً لبلاده ، وبأنه جدير أن يتربع على عرش إمبراطورية العالم أجمع[٩٨] ، ويضيف ول ديورنت "إنه ليدهشنا أن نرى هذا الوثنى الشاب قد رضيت عنه على الفور مدينة ودولة لم تعرفا منذ جيل من الزمان إلا أباطرة مسيحيين[٩٩] . وليس من السهل على شخص له مثل هذه الصفات ويتمتع بمثل هذه الروح وتلك الفضائل أن يقدم على الانتحار .

ثم إن القصة تشير إلى أن الإمبراطور أوحى إلى أحد رجاله بأن يطعنه ! إذن لابد أن يكون هذا الرجل من خلصاء الإمبراطور ومن المقربين ، ولابد أيضاً أن يكون معروفاً . وإذا كان جوليان قد بيت الانتحار فعلاً ، فلم لم يقدم على ذلك بيده حتى يظل لغزاً محيراً فى نظر رجاله !! لا شك أن القصة قد نسجها الخيال . وقد يهدمها برمتها أن أصحابها أنفسهم يذكرون إنها شائعات ترددت فى أسواق نصيبين بعد أن حمل إليها جثمان الإمبراطور . فإذا أضفنا إلى ذلك ما يذكره المؤرخ الكنسى سوزومين من أن هذه المدينة قد أظهرت كراهيتها للإمبراطور جوليان بعد أن رفض مد يد المساعدة لها إزاء الغزو الفارسى المتوقع ، لأن أهلها حسب تعبير سوزومين ، كانوا كلهم من المسيحيين[١٠٠] نقول إذا أدخلنا ذلك فى اعتبارنا نكون قد أضفنا إيضاحاً جديداً لمدى صدق هذه الرواية من عدمه مع العلم أن ما يذكره سوزومين لا يتفق وما كان جوليان بصدده من القيام بالحرب ضد الفرس .

---

(٩٦) *CAM. MED. Hist.* I, p. 83.

(٩٧) جيبون ، اضمحلال الإمبراطورية ، جـ٢ ، ص ١٦.

(٩٨) نفسه.

(٩٩) ول ديورنت ، قصة الحضارة ، م٤، جـ١ ، ص ٣٣.

(١٠٠) SOZOM. *hist. eccl.* V, 3.

ويقيم آخرون الدعوى ضد العرب الذين شاركوه حملته على فارس ، متهمين إياهم بأنهم قتلة جوليان أو هكذا يعتقدون[١٠١] . وليس هناك شئ محدد يمكن أن يؤكد هذا الاتهام ، إلا أن يكون بعض زعماء القبائل العربية الضاربة على تخوم الإمبراطورية قد ساءهم أن جوليان لم يحذو حذو من سلفوه بالإنعام عليهم ببعض الألقاب التى ترفع قدرهم بين قومهم ، وبخاصة بطريق Patricius وهى السياسة التى درجت عليها دائماً الإمبراطورية، فلما حاول إصلاح خطأه السياسى ذاك ، لقى الاستجابة من بعض الزعماء ، بينما ظل آخرون يبدون امتعاضهم[١٠٢] .

على أن الشئ الجدير بالذكر هنا أن هذهالفترة كانت تشهد نمواً متصاعداً فى نغمة العداء من جانب القبائل العربية ضد الفرس وليس الرومان ، فالسياسة الرومانية تجاه المنطقة العربية ، وكجزء من سياسة الإمبراطورية الرومانية بشكل عام ، كانت تقوم على استقطاب عدد من زعماء القبائل العربية النازلة عند حدودها أو داخل شبه الجزيرة العربية نفسها وبخاصة عبر الطريق الموصل بين سوريا وعدن ، باعتباره واحداً من أهم الطرق التجارية الرئيسية آنذاك بين الشرق والإمبراطورية ، ولم يكن يعنيها فى المقام الأول فى سبيل امتداد نفوذها إلى هذه المناطق الاستراتيجية ، الوجود العسكرى ، وبخاصة بعد التجربة القاسية والفاشلة التى تعرضت لها حملة آيليوس جاللوس على عهد الإمبراطور أوغسطس[١٠٣] . هذا على عكس السياسة الفارسية تماماً والتى كانت تعتمد بصورة أساسية على الاحتلال العسكرى وفرض النفوذ السياسى ، والأمثلة على ذلك كثيرة قبل هذا التاريخ وبعده ، وليس هنا مجال الخوض فيها ، ورغم أن القبائل العربية فى جملتها لم تكن حريصة على تدعيم هذا الفوذ أو ذاك ، إلا أن مشاعرها العدائية كانت تجاه الفرس أكثر وضوحاً ، لهذا السبب أو لغيره فيما يتعلق بمصالحها التجارية .

وتخبرنا المصادر العربية أن سابور ذا الأكتاف ،الذى كان معاصراً لجوليان ، قد أوقع بالعرب خصوصاً قبائل تميم وبكر بن وائل وعبد القيس ، الكثير من العسف ، "فغور عليهم المياه وأفشى فيهم القتل وسفك الدماء .. حتى كان الهارب منهم يرى أنه لن ينجيه منه غار فى جبل ولا

---

(١٠١) Ibid, VI, 1; THEOD. *hist. eccl.* III 25.

(١٠٢) AMM. MARC. *Res gest.* XXIII, 5; XXIV, 1-11.

(١٠٣) للمزيد من التفصيلات عن هذه الحملة وسياسة الإمبراطورية عامة فى هذه المنطقة راجع للباحث: الصراع الدولة حول شبه الجزيرة العربية فى القرن السادس الميلادى ، المجلة التاريخية ١٩٨٩ .

جزيرة فى بحر"[١٠٤] من هنا كانت لدى هذه القبائل العربية ما يدفعها إلى الانخراط فى جيش جوليان لحرب فارس ، أو على حد تعبير الطبرى "انتهزت العرب بذلك السبب الفرصة للانتقام من سابور وما كان من قتله العرب"[١٠٥]، وليس أدل على ذلك من أن عدداً كبيراً من شارك قوات جوليان فى هذه الحرب رغم المبالغة الرقمية الواضحة التى تذكرها المصادر العربية[١٠٦] .

لم يكن لدى العرب إذن من الدوافع السياسية على الأقل آنذاك ، ما يحفزهم لقتل جوليان . وليس من المقبول أصلاً الذهاب إلى افتراض دوافع عقيدية ، فلم تكن المسيحية حتى تلك الفترة أو بعدها بزمان قد لقيت رواجاً ومن القبائل العربية فى شبه الجزيرة[١٠٧] . ولو حدث هذا فعلاً لما أغفل المؤرخون المسلمون ذكره ، ولكانوا قد أحاطوه بالتبجيل والاحترام ، لإقدام أحد المسيحيين العرب على قتل إمبراطور وثنى ، وهم الذين آلمهم والمسلمين جميعهم ، ما حل بإمبراطورية الروم المسيحية على يد الفرس المجوس فى مطلع القرن السابع الميلادى من هزائم متلاحقة أضاعت ولاياتها الشرقية ، وتحدثوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الأمر ، ولم تهدأ نفوس المسلمين إلا بعد أن نزلت سورة الروم تتبئهم بنصر للروم على الفرس قريب[١٠٨] . لكن أحداً من المؤرخين المسلمين لم يذكر ذلك أبداً ، وإنما أوردوا عبارة واحدة مؤداها "وأصاب جوليان سهم غرب" أى لا يعلم مصدره[١٠٩] أو على حد تعبير ابن الأثير "لا يعرف من راميه"[١١٠].

ويبدو أن جوليان قد أوحى لمعاصريه وخلفائه أن المسيحيين أو "الجليليين" – على حد قوله – هم الذين قتلوه ، وذلك مما فاه به وهو يعالج سكرات الموت "الآن .. انتصرت أيها الجليلى".. يعنى المسيح . وقد ساهم المؤرخون الكنسيون ربما عن قصد فى تثبيت هذا الإتهام ، وراحوا يضعون

---

[١٠٤] اليعقوبى، تاريخ، جـ١، ص ١٦٢ ؛ الطبرى، تاريخ الأمم والملوك ، جـ٢ ، ص ٣٤٦ ؛ إبن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ١ ، ص ٣٩٥ .

[١٠٥] الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص ٣٤٦ .

[١٠٦] تذكر هذه المصادر أن عدد العرب الذين شاركوا فى هذه الحملة بلغ مائة وسبعين ألفاً ، وهذا دون شك عدد مبالغ فيه جداً ، إذا علمنا أن جيش جوليان كان فى جملته خمسة وأربعين ألف جندى فقط ، راجع الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص ٣٤٦ .

[١٠٧] ناقشنا هذه القضية فى بحثنا الذى أشرنا إليه آنفاً ، الصراع الدولة حول شبه الجزيرة العربية فى القرن السادس الميلادى ، راجع حاشية رقم ١٠٣.

[١٠٨] "آلم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم" .

[١٠٩] الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص ٣٤٧؛ اليعقوبى، تاريخ، جـ١ ، ص ١٦٢ .

[١١٠] ابن الأثير، الكامل، جـ١، ص ٣٩٥ .

الروايات العديدة التى تدعم هذه الدعوى ، ويقول Chadwick "من المؤكد أن المسيحيين لم يحاولوا وقف أو إخفاء ابتهاجهم بمصرع جوليان ،وكان عدم إظهار الحزن على هذا النحو دافعاً إلى التأكيد على تواطئهم فى هذا القتل العمد ، حتى أن بعض المتحمسين منهم راح يدافع عن ذلك باعتباره مقاومة مشروعة ضد طاغية من أعداء المسيح"(١١١) . ولعله يشير بذلك إلى الفرحة العارمة التى تملكت المؤرخ الكنسى سوزومين ، إذ أفصح عما تكنه نفسه ونفوس بنى عقيدته بقوله: ليس بعيداً عن الاحتمال أن بعض الجنود منهم (يعنى المسيحيين) الذين يخدمون فى الجيش الرومانى كانوا يحملون هذا الخاطر . ومنذ زمن الإغريق وحتى أيامنا هذه فإن الناس يمتدحون قتل الطغاة ويمجدون القاتلين لأنهم يعرضون أنفسهم للموت فى سبيل الحرية ، ويرفعهم الأهل والوطن والرفاق إلى عليين . كيف إذن نوجه اللوم إلى ذلك الذى من أجل الله والعقيدة أتم عملاً جسورا"(١١٢) .

ويشفع سوزومين حديثه بحادثة تشير إلى لقاء تم عرضاً بين جوليان أثناء استعداده للحرب الفارسية ، وأحد رجالات الكنيسة ، قال فيه الإمبراطور لصاحبه وهو يحاوره "إن ابن النجار لن يكون قادراً على أن يمد يد العون للجليليين إذا ما آتاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم" فأجابه الكاهن "إن ابن النجار ذاك يعد تابوتاً لموت جوليان"(١١٣) . وعلى نفس المنوال ينسج المؤرخ الكنسى رواية ينسبها فى هذه المرة إلى أحد أصدقاء جوليان نفسه فيقول إن هذا لاصديق "إذ هو مرتحل ينوى اللحاق بالإمبراطور فى الحملة الفارسية ، جن عليه الليل فآوى إلى أحد الكنائس ، فرأى فيما يرى النائم أن كل الرسل قد اجتمعوا يتشاكون من الضرار التى لحقت بالكنيسة على يد الامبراطور ، ويتشاورون فى خير الوسائل الكفيلة برفع هذه الغمة ، وتملكهم الحيرة ، لكنها سرعان ما تبددت عندما هب من وسط الجماعة اثنان وطلبا إلى الآخرين أن يقروا عينا ، وتركا الإخوة مسرعين كما لو كانا قد ذهبا لتجريد جوليان من سلطته الإمبراطورية !! فلما آفاق الرجل خشى أن يتم رحلته وجلس يترقب ، حتى إذا غلبه النوم ثانية ، رأى الجماعة إياها من جديد وقد التقت ، وإذا بهذين يعودان ويعلنان للجميع أن جوليان قد مات !! (١١٤) .

والحادثة والرواية تكمل إحداهما الأخرى ، وتشيران فى نسيج خيالى جميل إلى مدى الغضب الذى تملك على المسيحيين جميعهم مشاعرهم ، إلى الحد الذى استفز رسل المسيح ودفعهم إلى لتشاور ، بإيحاء من المسيح طبعاً كما تشير الحادثة ، فيما يمكن عمله للخلاص من هذا الجالوت

---

(١١١) *The early church* , p.158

(١١٢) SOZOM. *Hist. eccl.* VI , 2.

(١١٣) Id.

(١١٤) Id.

الجديد . والغريب فى الأمر أن صديق جوليان هذا لابد أن يكون مسيحياً ، وإلا كيف يمكن القول بأنه وثنى يأتيه رسل المسيح أنفسهم مرتين فى ليلة واحدة ، ويكشفون له عن أسرار لقياهم ؟! .

ويمضى سوزومين فى الطريق إلى منتهاه ، فيروى قصة أخرى ينسبها هذه المرة إلى ديديموس Dydimus الضرير ، الفيلسوف المسيحى ، آخر أساتذة مدرسة اللاهوت السكندرى[١١٥] ويقول فيها إن الرجل تملكه الغم والحزن لخطايا جوليان واضطهاده للكنيسة ، فاعتكف يقدم الصلوات والضراعة للرب حتى يبصر هذه الفعال ! وفى إحدى الأمسيات ، وكان الهزال قد اعتراه وصادقه الأرق ، غالبه النعاس فوق كرسيه فغلبه ، وشملته وهو نائم حالة من الانجذاب الروحى فرأى جياداً بيضا تمرق فى الهواء ، وسمع صوتاً يهتف بأولئك الذين يمتطون صهواتها قائلاً : "اذهبوا إلى ديديموس وأخبروه أن جوليان قد مات الساعة ، ودعوه ينقل هذا الخبر إلى أثناسيوس (أسقف الأسكندرية وألد أعداء جوليان) ودعوه ينهض ويطعم!" [١١٦] .

والذى يلفت الانتباه ، أن أحداً من مؤرخى الكنيسة الآخرين ، لم يذهب بعيداً إلى مثل ما ذهب إليه سوزومين ، فى إيراد هذه الروايات ، لقد كان الرجل أصلاً أحد رهبان غزة ، ورغم أنه كان دارساً للقانون مشتغلاً بالمحاماه ، إلا أن ذلك لم يمنعه على حد تعبير أحد الدارسين من أن يحشو كتابه بالكثير من الأساطير[١١٧] . على حين نجد مؤرخاً ناقداً مثل سقراط Socrates وكان معاصراً لسوزومين ، يذكر مثلاً أن كاللليستوس Callistus أحد حرس الإمبراطور الذى خلد أعماله فى ملحمة شعرية ، يقول إن الجرح الذى مات منه الإمبراطور إنما ابتلاه به شيطان ! ويعلق سقراط على ذلك قائلاً إنه من المحتمل أن يكون ذلك مجرد خيال شعرى ، وربما كان حقاً هو الواقع ، فكثيراً ما قيل عن موت رجال على أيدى آلهات الانتقام الحقودة عند الإغريق ، فليكن الأمر كيف كان ، لكن الشئ المؤكد أن حماسة طبع جبل عليها الإمبراطور جعلته عديم الحذر ، فتقدم دون درع يحميه . لقد قادته فلسفته إلى اللامبالاة"[١١٨] . وواضح جداً من هذا السياق التزام سقراط بالمنهج التاريخى ، فهو يصف مثل هذه الأمور بأنها محض خيال ويضعها فى إطار المحتمل ، لكنه عندما يذهب إلى حد الشئ المؤكد – من وجهة نظره – نراه لا يورد إلا ما يتفق مع العقل إلى حد بعيد . ولعل سقراط أراد أن

---

(١١٥) للوقوف على شخصية ديديموس راجع :

HIER-Vir.ill.109 ; SOZOM. *hist. eccl.* III 15 ; THEOD. *Hist. eccl.* IV , 26.

(١١٦) SOZOM. *Hist.eccl.*VI , 2.

(١١٧) Prolegomena , *Praef*.

(١١٨) SOCRAT. *Hist. eccl.* III , 21.

يلتزم جدة الحذر فى كتابته ، فلم يخرج كثيراً عما كتبه قبله المؤرخ الوثنى المعاصر ، أميانوس ماركللينوس صديق الإمبراطور[١١٩] .

ومهما يكن من أمر ، فإن كل هذه الرؤى والروايات التى جرت بها أقلام مؤرخى الكنيسة، رغم أنها تعبر بصدق عن مشاعر الارتياح وموجة الفرح العارمة التى اجتاحت المسيحيين لدى سماعهم بنبأ مصرع الإمبراطور جوليان[١٢٠] ، إلا أنها تظل فى دائرة الاحتمالات العديدة التى تمس أطرافاً عدة فى هذه القضية ، فسوزومين نفسه صاحب معظم هذه الروايات يصف فى صورة أدبية رائعة نهاية جوليان بقوله "... وحمى وطيس القتال وزاد من أواره ريح عاتية ، وغطى ظلماء السحاب وجه الشمس وزرقة السماء ، وترددت فى الهواء أنفاس التراب وسط دياجير الضحى ! وشق فارس برمحه ذلك السكون الجلب ورمى به الإمبراطور فأرداه جريحاً ، واختفى وسط السكون !!" [١٢١] . والفقرة هذه لا تفصح عن هوية ذلك الفارس ، ولكن سوزومين لا شك يسعده أن يوحى إلى الناس جميعا إمكانية كون هذا "البطل"مسيحياً ، بما يورده بعد ذلك مباشرة من الروايات التى عرضنا لها منذ قليل ، وبتعليقه عليها بقوله : "إنه لا يستطيع رفض كل هذه الروايات ، لأن الله لا يمكن أن يقبل الإساءة إلى المسيح على النحو الذى أبداه جوليان"[١٢٢] .

على أن ليبانيوس الفيلسوف الأنطاكى يتهم المسيحيين صراحة بأنه قتلة جوليان ، فقد كتب يقول : "لعلكم تتساءلون عمن قتل الإمبراطور ؟ إنى لا أعرف اسمه ، ولكنا مع ذلك نملك الدليل على أنه لم يكن واحداً من أعداء الرومان ، لأن أحداً لم يتقدم لينال المكافأة التى أعلن عنها ملك الفرس . ونحن نشكر أولئك الأعداء على أنهم لم يدعوا لأنفسهم فخار هذه الجريمة ، وتركوا لنا أن نبحث عن القاتل بين ظهرانينا . إن الذين يرجون موته هم الذين تآمروا عليه ، وهم الذين أقدموا على هذه

---

(١١٩) *Res gest.* XXIV , 1-8 ; XXV , 1-3.

(١٢٠) جاء فى حديث الأسقف السكندرى أثناسيوس لأحد الرهبان المقربين اليه ، أمون ، وهو يقص عليه أنباء ما قد سلف ابان فترة نفيه على عهد جوليان ، "...بينما أنا ماض فى حديثى ، ثبت ثيودور (رئيس الرهبان الطابنيين Tabennesian) عينيه على بامون Pammon (أب الرهبان حول أنطينوى Antinopolis (الشيخ عبادة حاليا) ، وافتر عن ابتسامة ثغره ، بينما علا الضحك وجوه الاخرين ، ورحت أحملق مشدوها وخاطبتهم : فيم تضحكون ، أتظنون بى جبنا؟ فلم يلتفت الى ثيودور وقال لبامون "خبره علام تضحك" فأجاب "بل أخبره أنت" ، قال ثيودور " الأن قتل جوليان فى فارس" ، انظر: ATHANAS. *Narr. Ad Ammon* ولمزيد من التفصيلات ، راجع للباحث ، الدولة والكنيسة ، الجزء الثالث ، ص٣٥٠-٣٥٣.

(١٢١) SOZOM. *Hist. eccl.* VI , 1.

(١٢٢) Ibid , VI, 2.

الجريمة حين سنحت لهم الفرصة ، يدفعهم إلى ذلك الرغبة فى الحصول على أكبر قدر من التحرر من كل سلطان يفوق ما نالوه تحت سلطانه ، ربما حرضهم على ذلك أيضاً حقدهم والغضب لتعلق الإمبراطور بالأرباب الذين كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين"[١٢٣] .

وبغض النظر عن صحة الاتهام الذى يوجهه ليبانيوس إلى المسيحيين من عدمه ، إلا أن أدلة اتهامه التى وردت فى آخر دعواه تقترب من الصدق تماماً ، إن لم تكن الصدق عينه . فالمسيحيون لا شك آلمهم جداً ما حل بساحتهم من جراء سياسة جوليان العقيدية خاصة إبعادهم عن مجال التعليم والتعلم ، بالإضافة إلى عدة إجراءات أخرى تتعلق بإزاحة المسيحيين عن المناصب المدنية والعسكرية واستبدال الوثنيين بهم ، والاستغناء عن لا برومة قسطنطين الشهيرة التى كانت شعار للجيش ، ووضع رموز وثنية على تروس الجنود ، بدلاً من نقش صليب قسطنطين البراق[١٢٤] وإلغاء الامتيازات التى كان يحصل عليها رجال الإكليروس المسيحيون ، وإيقاف الهبات التى كانت الحكومة تهبها للكنيسة منذ عهد قسطنطين . وإن كان هذا كله قد عد فى نظر جوليان تصرفا طبيعيا يتناسب وطبيعة المرحلة الجديدة ، ولا يختلف فى شئ عما فعلته الحكومة السابقة لصالح المسيحيين[١٢٥] . كما أن جوليان أمرهم أيضاً بدفع التعويضات اللازمة عن المعابد التى هدموها ، والأراضى التابعة لها والتى استولوا عليها ، ومرة أخرى لم يكن الإمبراطور يرى فى ذلك ظلماً أحاط بهم سرادقه ، لأن قسطنطين وأبناءه كانوا قد قاموا بإعادة بناء ما تهدم من الكنائس وتشييد كنائس جديدة وإعادة الأراضى المصادرة إلى المسيحيين ، كل هذا على نفقة الحكومة الرومانية[١٢٦] .

ورغم كل هذه الإجراءات إلا أن جوليان لم يقدم على ممارسة العنف من خلال إنزال الاضطهاد البدنى أو المادى بجموع المسيحيين كما كان الأمر على عهود الأباطرة الوثنيين الذين سبقوا قسطنطين ، إلا أن تخوف المسيحيين من أن يحل بهم ذلك جعلهم يستبقون الأحداث ، لأن

---

(١٢٣) Ibid. VI , 1.

(١٢٤) كان الصليب الذى اختاره قسطنطين لينقش على خوذ جنوده وتروسهم منذ عام ٣١٢ يختلف عن الصلبان المسيحية المعروفة ، فقد كان يتكون من الحرفين الأولين من اسم المسيح فى اليونانية (خريستوس) Xpistos متقاطعين ، وهما حرف الخاء X والراء P وكان وضعهما مع بعضهما على النحو الذى أراده قسطنطين على هذه الشاكلة لا يخرج عن كونه أحد الرموز الوثنية القديمة المنقوشة على جدران المعابد ، ومن ثم لم يجد الجنود انذاك وكلهم من الوثنيين أية غضاضة فى حمل هذه العلامة لتقودهم الى النصر ، للمزيد من التفصيلات راجع للباحث ، الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى ، الفصل الثالث.

(١٢٥) Vasiliev, *Op. Cit.*, I, p. 73; Jones, *Decline of the Ancient World,* p. 60.

(١٢٦) EUSEB. *Hist. eccl.* X, 5-7; *Vita Const.* III, 25 – 43.

انتظار العذاب أقسى من العذاب نفسه ، فقاموا بحرق عدد من المعابد ، وتدمير عدد من تماثيل الأرباب كما حدث مثلا فى بسينوس Pessinus وقيسارية كبادوكيا ودافنى فى أنطاكية وغيرها[١٢٧] . ولا شك أن المسيحيين كانوا يشاهدون ما يعتبرونه "ردة" جوليان فى فزع وسخط ومن ثم لم يكن هناك شئ يمكن أن يجلب السكينة إلى نفوسهم ويذهب عنهم الغم والحزن ويهدئ من روعهم إلا الخلاص من مثل هذا الطاغوت !! ولم تكن هذه المشاعر تفرق بين الجموع المسيحية والمثقفين ، بحيث نجدها بارزة فى كتابات مفكر مرموق مثل جريجورى النازياوى مثلاً ، الذى كان يسيطر عليه – وعلى غيره –اعتقاد بأن جوليان سوف يذيق المسيحيين العذاب الأليم إذا ما عاد من الحرب الفارسية منتصراً . ولذا كان من الأفضل بل من الضرورى ألا يعود أبداً !! ومرة أخرى يضرب مؤرخو الكنيسة على أوتار هذه النغمة عالياً[١٢٨] .

وقد كتب جيبون تعليقاً رائعاً على هذا جاء فيه[١٢٩] : "إذا كانت روح التعصب القاتلة قد أفسدت قلب حاكم فاضل ، فينبغى فى الوقت عينه أن نعترف بأن الحماسة الدينية والأهواء البشرية هى التى ضخمت آمال المسيحيين وزادتها حدة ، ذلك أن صفات الدعة والاستسلام والصبر التى تميز بها حواريو الإنجيل الأوائل ، قد أصبحت موضع استحسان خلفهم دون أن تكون مثالاً يحتذونه! وإنك لترى المسيحيين بعد أن انقضى عليهم الآن قرابة أربعين عاماً وهم مسيطرون على الحكم المدنى والدينى فى الإمبراطورية ، قد أصيبوا بعدوى الرفاهية والنقائص المعيبة ، وسيطر عليهم الاعتقاد بأن القديسين وحدهم أصحاب الحق فى حكم الأرض !! ولذا فما أن ناصبهم جوليان العداء وحرم رجال الدين من الامتيازات التى أغدقها عليهم قسطنطين ، حتى جأروا بالشكوى من أنه يضطهدهم أقسى الاضطهاد ، وأصبح تسامحه مع الوثنيين والهراطقة – فى نظرهم –أمرا شائناً يدعو إلى الحزن والأسى" .

---

[١٢٧] وقعت بعض الأحداث فى المقابل تجاه المسيحيين فى بعض مدن سوريا وفريجيا وكبادوكيا ، وقد لا يكون جوليان مسئولاً بصفة شخصية عن مثل هذه الأحداث ، التى لا تتفق وخلقه الفلسفى وأسلوبه فى معالجة القضية لمسيحية ، ولعل عماله فى الأقاليم قد سمحوا بوقوعها ظناً منهم أن فى ذلك ما يرضى مليكهم ، راجع :

SOCRAT. *hist. eccl.* III 2; SOZOM. *hist. eccl*. V, 4-10; THEOD. *hist. eccl*. III 3; Jones, *Op. Cit*. p. 60.

[١٢٨] SOZOM. *hist. eccl.* VI, 1-2.

[١٢٩] جيبون ، اضمحلال الإمبراطورية ، جـ٢ ، ص ٧٣.

ولقد أصاب جيبون كبد الحقيقة ؛ فالمسيحيون منذ أصبح قسطنطين حاكماً فرداً على الإمبراطورية عام ٣٢٣ كانوا قد بدأوا يشعرون بأمان افتقدوه طويلاً ، وزاد من طمأنينتهم أنه جاءهم على يد الدولة نفسها التى ناصبتهم العداء من قبل وإن لم يكن فى جوهره لأسباب دينية . وعلى عهود أبناء قسطنطين الثلاثة اتسعت مساحة ابتسامتهم بالكثير من الامتيازات التى أغدقتها الدولة عليهم وحرمان الوثنية من رمز الفخار التقليدى ، مذبح النصر فى مجلس السناتو الرومانى على يد قسطنطيوس ، ولم يكن يعكر صفو بعضهم نسبياً إلا انحياز أبناء قسطنطين إلى هذا الفريق أو ذاك من فرق المسيحية العديدة المتصارعة بحثاً عن ماهية للمسيح ، لكن المسألة بدت لهم أملاً مشرقاً عندما راحت عقارب الزمن تسير فى الاتجاه المضاد بعد قرون ثلاثة لتوقع بيد الدولة الاضطهاد بالأغلبية الوثنية فى الإمبراطورية ، فلم يكن عدد المسيحيين حتى القرن الرابع الميلادى يزيد عن عشر سكان الإمبراطورية فقط ، ونسوا أو لعلهم تناسوا تلك العلاقات غير الطيبة التى كانت تربطهم من قبل بالمجتمع الرومانى ، فلما جاءهم جوليان يسحب من تحت أقدامهم بساطا من الأمل كانوا قد مشوا عليه لتوهم ، أصابتهم حمى القنوط واستبد بهم اليأس وضاقت بهم الأرض بما رحبت ، وظنوا أن لا ملجأ لهم من الإمبراطور إلا بقتله ، وأن خلاصهم فى الخلاص منه .

لهذا كله لم يكن غريباً أن يسوق مؤرخو الكنيسة كل هذه الروايات ، لا لتأكيد إتهام بالقتل بقدر ما هو خلع دور من البطولة تمجده الأيلم ، ويوحى للأجيال أن مسيحياً قد قضى على آخر محاولة جرت على المستوى الرسمى لإعادة إحياء الوثنية ، وإذا لم يكن أحد من الفرس قد جرؤ على أن يدعى لنفسه فخار ارتكاب هذه الجريمة – على حد تعبير ليبانيوس ، فلا أقل من أن يحملها مسيحى !! ولعل مافاه به جوليان وهو يموت "ها قد انتصرت أيها الجليلى" تؤكد هذا المعنى بشكل خاص ..بمعنى أن الساحة قد خلت الآن بموته للمسيحيين ، وأنهم بمصرعه ، أياً كان الجانى ، قد كسبوا هذه الحرب الدائرة بين الوثنية والمسيحية . حقا "لقد كانت لديهم الدوافع كلها لاغتيال جوليان.. لكن أدلة البراءة أو الإدانة ما زالت غائبة فى سراديب الزمن ، لتبقى قضية مصرع جوليان منظورة أمام محكمة التاريخ.